

أبناءؤنا
سلسلة سفير التربية

١

طفلك هبة الله لك

أ. د. عبد الغني عبود



سفير



30
A

**2007
SIDA grant
Sweden**

أبنائنا

سلسلة سفير التربوية

(١)

طفلك هبة الله لك

تأليف

أ.د. عبد الغنى عبود

أستاذ التربية المقارنة والإدارة التعليمية

بكلية التربية - جامعة عين شمس

للسنة ٢٠٢٠

شكرًا لـ زهير

الهيئة الاستشارية :

أ.د. فتح الباب عبد الحلیم سید

أستاذ تكنولوجيا التعليم - جامعة حلوان

أ.د. سعید إسماعیل علی

أستاذ أصول التربية - جامعة عين شمس

أ.د. عبد الغنى عبود

أستاذ التربية المقارنة - جامعة عين شمس

أ.د. علی أحمد مدکور

مدرس المناهج وطرق التدريس - جامعة القاهرة

د. شحاتة محروس طه

مدرس علم النفس التربوى - جامعة حلوان

هيئة التحرير :

عبد الحمید توفیق

سلامة محمد سلامة

حمادى محمد بنورة

سید عبد الحمید قرغلى

جميع حقوق الطبع والنشر

محفوظة لشركة **سفيج**

رقم الإيداع ٩٣ / ٤٤٠٠

الترقيم الدولى: 6 - 204 - 261 - 977 - ISBN

لِقَاءُ رَبِّكَ

استطاع الإنسان بالعلم أن يعرف الكثير والكثير عن الحياة من حوله؛ عن الأرض التي يعيش عليها، وعن الكون المحيط بهذه الأرض أيضاً، مما يُفترض أن يجعل حياته أكثر بهجة، وأكثر أمناً واستقراراً، بعد أن صار يعرف الكثير - أيضاً - عن مسائل المرض والصحة، وصار يملك من الأدوات والمعدات ما جعله قادراً - بإذن الله - على أن يقهر المرض، وعلى أن يتجنب الأسباب المؤدية إليه - أيضاً - فيتقيها.

والعلم ذاته نعمة من نعم الله الكبرى على الإنسان، فضَّله بها على سائر المخلوقات، فاختره خليفة له في الأرض، إلا أن العلم الصحيح علم يقود إلى الإيمان بالله، وإلا صار هذا العلم زائفاً، يقود الإنسانية إلى ما تعاني منه اليوم من تخبُّطٍ وإفسادٍ للحياة، حتى صارت عديمة المعنى، ومن ثمَّ صارت لا تستحق أن تُعاش، رغم ما حققه العلم فيها من رفاهية.

وهكذا صار الإنسان في حاجة إلى وقفة مع نفسه ووقفة مع الحياة من حوله، بعد أن صارت تجرفه إلى ما يخشى هو عقابه، ليتتمكن من السيطرة عليها، قبل أن يفلت زمامها من يده.

ولو أن الإنسان وقف مع نفسه هذه الوقفة المطلوبة، لوجد أن الحياة حلوة، وأن حلاوتها في نفسه تنبع منه هو، إذا هو عاد إلى ربه،

وأحصى نعم الله - سبحانه - أو بعضها عليه، وشكره - سبحانه -
على ما أنعم به عليه من نعم، فحينئذ يكون لحياته معنى، وسيكون
لها طعم مختلف، يدفعه إلى معانقة الحياة.

ووقفنا في هذا الكتاب مع نعمة واحدة من النعم التي أنعم الله -
سبحانه - بها علينا، وهي نعمة الأبناء، الذين صاروا في عيون
الكثيرين عبئاً على الحياة، مع أن الأصل أنهم بهجة هذه الحياة الدنيا
وزينتها.

الْفَقِيرُ لِلَّهِ

نعم لا تعد ولا تحصى

أن تحس بأنك تعيش فى نعمة، هو فى حد ذاته نعمة، لا يحظى بها إلا المصطفون من خلق الله، الذين آتاهم الله الحكمة، فمكّنهم بها من أن يروا نعمة الله فى أنفسهم وفيما حولهم، وهداهم بعد ذلك إلى أن يشكروه - سبحانه - عليها، على نحو ما نرى فى مثل قول الله سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: ١٢].

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأْذِنَ رَبُّكُمْ لئن شكرتُمْ لأزيدنكم ولئن كفرتُمْ إنَّ عَذَابِي لشديدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠].

وإذا كان شكر الله - سبحانه - على ما أنعم به على الإنسان هو طريق كل خير، فإن هذا الشكر هو الصراط المستقيم، الذى ندعو الله أن يهدينا إليه فى كل ركعة من ركعات كل صلاة نصليها، حيث نقرأ فى سورة الفاتحة :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴿ [الفاتحة : ٦، ٧].

ويهدينا ربنا إلى هذا الصراط المستقيم، بما رغبه فينا من حواس
نتعرف بها ما حولنا، وبما حباننا به من عقل، نميز به بين ما هو حق وما
هو باطل، بهداية من الله؛ إذ من شأن الإنسان أن تضله حواسه بغير
هذه الهداية، فلا يلجأ إلى الله إلا عند الشدة وحدها، على نحو ما
نرى في مثل قول الله سبحانه:

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ
يُتُوساً ﴾ [الإسراء : ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا
مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : ٥١].

وقد ذكر ربنا - سبحانه - هذه النعم التي لا تُعدُّ ولا تُحصى في
موضعين اثنين، يسهل على الحواس أن تقع عليهما، هما: الأرض التي
نعيش عليها، وكياننا ذاته؛ حيث يقول سبحانه: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ
آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ (٢٠) ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠، ٢١].

وحول الأرض، وما حولها، دارت آيات كثيرة، تشير إلى ما
أودعه الله - سبحانه - فيها من نعم وآيات، تدل على قدرة الخالق
سبحانه، وعلى فضله على سكان هذه الأرض - وخاصة الإنسان - في

مثل قول الله سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة : من ٢٢].
وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣) وفي الأرض قطعٌ مُّتجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ [الرعد : ٣، ٤].

ولا يقف أمر نعم الله - سبحانه - في الأرض على ظاهر ما ذكرته الآيات الكثيرة التي دارت حول الأرض وما حولها، وإنما يتعدى ذلك إلى ما وراء هذا الظاهر - أيضاً - من لؤلؤ ومرجان وحديد، ثم من معادن كثيرة، لا تُعدُّ ولا تُحصى، يتم اكتشافها واستخراجها كل يوم، مع تقدم العلم، وزيادة قدرة الإنسان على تسخير ما أودعه الله - سبحانه - من خيرات في باطن هذه الأرض، لخدمة الحياة وتيسيرها علينا، حيث لا يكاد يوم يمر دون أن نسمع عن جديد في هذا المجال أو نقرأ عنه، إما في صورة خبر من أخبار العلم والإنجاز العلمي، أو في صورة إعلان عن منتج جديد في الصحافة والتلفزيون.

وكثيراً ما يرد ذكر الأرض في القرآن الكريم مرتبطاً بالسما، على نحو ما نرى في مثل قول الله سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ
ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ
أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ۝ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١ - ٣].

ولم نفهم إلا مؤخراً - وفي هذا العصر تحديداً - تلك العلاقة
العضوية التي تربط الأرض بالسماء، بما فيها من نجوم وكواكب وأقمار،
وتربط الأرض برب السماء والأرض.

وتصل بنا هذه العلاقة العضوية بين الأرض وعناصر الكون المختلفة
إلى المحطة الثانية لنعم الله، وهى الإنسان ذاته، وما ركبته الله - سبحانه
- فيه من إمكانيات واستعدادات وطاقات، يستطيع بها أن يستثمر
عناصر الكون تلك لصالح الحياة على الأرض ولصالحه؛ لعله يشكر الله
سبحانه، وفى ذلك يشير قول الحق تبارك وتعالى:

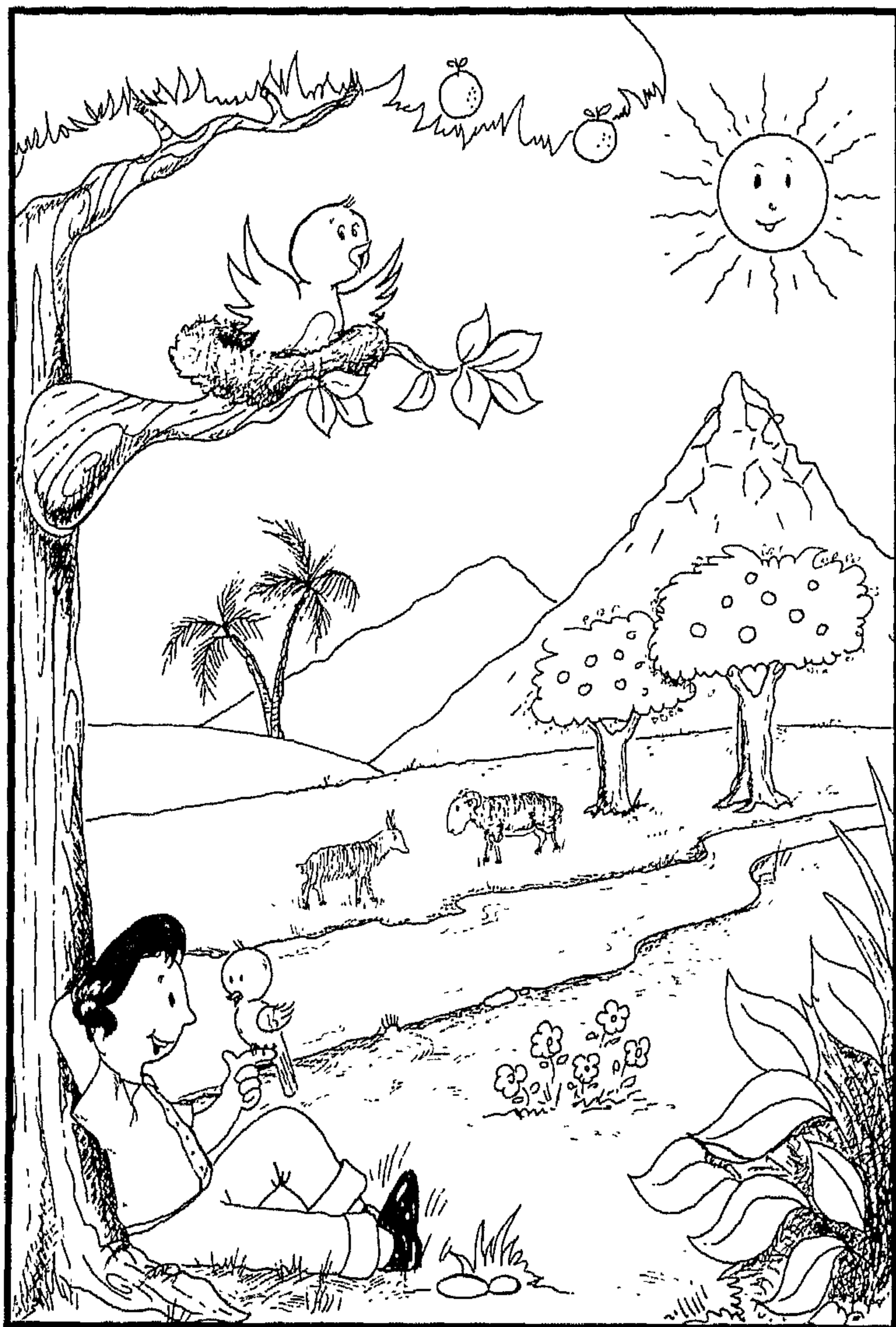
﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[النحل : من ٧٨].

ولكن التجربة الإنسانية الطويلة على الأرض؛ تدل على أن الإنسان
لا تقوده الطاقات والإمكانات التى أودعها الله - سبحانه - فيه إلى الخير
دائماً، فهو قليلاً ما يشكر، كما عبر القرآن فى قول الله تعالى:

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

[السجدة : من ٩].



ولأن الإنسان قليلاً ما يشكر؛ فإنه يستغل هذه الطاقات والإمكانات التي أودعها الله - سبحانه - فيه لتدمير الحياة، وتدمير الآخرين، وللبغى والعدوان؛ ومن هنا كانت النعمة الحقيقية التي أنعم الله - سبحانه - بها عليه هي نعمة هدايته، وإرسال الرسل إليه؛ لترشيد خطواته على طريق الحياة، بتعليمه وتزكيته، على نحو ما نرى في مثل قول الله سبحانه: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

[البقرة: ١٥١ - ١٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

لقد أثبت الإنسان أنه بما أودع فيه من طاقات وإمكانات، قادر على الخير قُدرته على الشر، وقادر على التعمير قُدرته على التخريب، وقادر على البناء قُدرته على الهدم، بنفس ما رُكِّب في نفسه من طاقات وإمكانات، وبنفس ما أودعه الله له في الأرض من عناصر، على نحو ما نرى في مثل قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

[الإنسان: ٢، ٣].

ومن ثمَّ كانت النعمة الكبرى التي أنعم الله بها على الإنسان، هي نعمة هدايته، وإرسال الرسل إليه ليحققوا هذه الهداية، مبشرين ومنذرين كما عبر القرآن الكريم في أربعة مواضع، منها قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

[النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

وكان هؤلاء الرسل - عليهم أفضل الصلاة والسلام - يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق على حد التعبير القرآني المحكم في سورة «الفرقان»؛ تعبيراً عن بشريتهم، ودليلاً على قدرة من أرسلوا إليهم على أن يكونوا مثلهم، حيث نرى قول الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠].

وكان كل رسول يُرسل إلى قومه، متحدثاً بلسانهم، مخاطباً ما فيهم

من خصوصية، حتى كان محمد ﷺ فجاء خطابه للناس عامة حسب قوله تعالى :

﴿ قل يأيتها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ [الأعراف : ١٥٨].

وسواء كان الخطاب لقوم بعينهم كما كان خطاب سائر الأنبياء والرسل - عليهم أفضل الصلاة والسلام - إلى مَنْ أُرسلوا إليهم، أو كان خطاباً للناس كافة، كما كان خطاب خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، فقد كان هدف هذا الخطاب واضحاً، وهو تصحيح علاقة الإنسان بربه، وتصحيح علاقته بالناس والأشياء، وبسائر عناصر الكون.

ومنطقى أن يكون للأبناء فى خطاب الأنبياء جميعاً نصيب، باعتبارهم نعمة من نعم الله التى لا تُعدُّ ولا تُحصى.



الفصل الثاني

الأبناء نعمة

يلفت نظر قارئ القرآن الكريم ربط الله عز وجل بين المال والبنين، عندما يتحدث عن أسباب القوة في الأرض، سواء في ذلك قوة الفرد، أو قوة الجماعة، وأشار سبحانه أيضاً إلى أنها قوة قد تقود إلى الغرور والاغترار، إلا من هدى الله.

ومن أمثلة من اغتر بماله وولده ونزل فيه قرآن: «الوليد بن المغيرة»، حيث يقول الله - سبحانه - عنه لرسوله ﷺ:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾

[المدثر: ١١ - ١٥].

أما عن الأم التي أهلكها غرورها، واغترارها بما أوتيت من مال وولد، وغيرهما من أسباب القوة، فتفيض بها كتب التاريخ، ويشير إليها القرآن الكريم في مثل قول الله سبحانه:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

وهكذا يكون الأبناء نعمة، باعتبارهم قوة للآباء وقوة للأمة جميعاً، إن لم يكونوا نعمة النعم، لاعتبار آخر، هو أنهم الدليل الحى على حيوية تجمع بين ذكر وأنثى، أمر الله - سبحانه - به على النحو الذى شرعه لتستمر الحياة، وهى بالنسبة إلينا حياة الإيمان التى يباهى بنا وبها رسول الله ﷺ الأمم يوم القيامة.

إن الأبناء نعمة من نعم الله على الآباء؛ لأنهم دليل حيويتهم، ودليل خصوبتهم، ودليل اقتدارهم أيضاً، إضافة إلى كونهم مزرعة يزرع فيها الآباء آمالهم التى لم يستطيعوا تحقيقها، وهم باب من أبواب رفع الدرجات عند الله - سبحانه وتعالى - فى الآخرة، وذلك حين يترك الواحد منهم من بعده «ولداً صالحاً يدعو له» على حد تعبير الرسول ﷺ.

وإذا نظرنا إلى أبنائنا على أنهم نعمة واستثمرنا طاقاتنا فيهم وفى تربيتهم وتأديبهم وإعدادهم للحياة الفاضلة، فسوف نجد أنهم عندما نحتاج إليهم فى ساعات الضعف، وفى حالات العوز إلى العون والمساعدة، وهى حالات محتمل وقوعها، حتى قبل سن الشيخوخة، خاصة فى هذا الزمان.

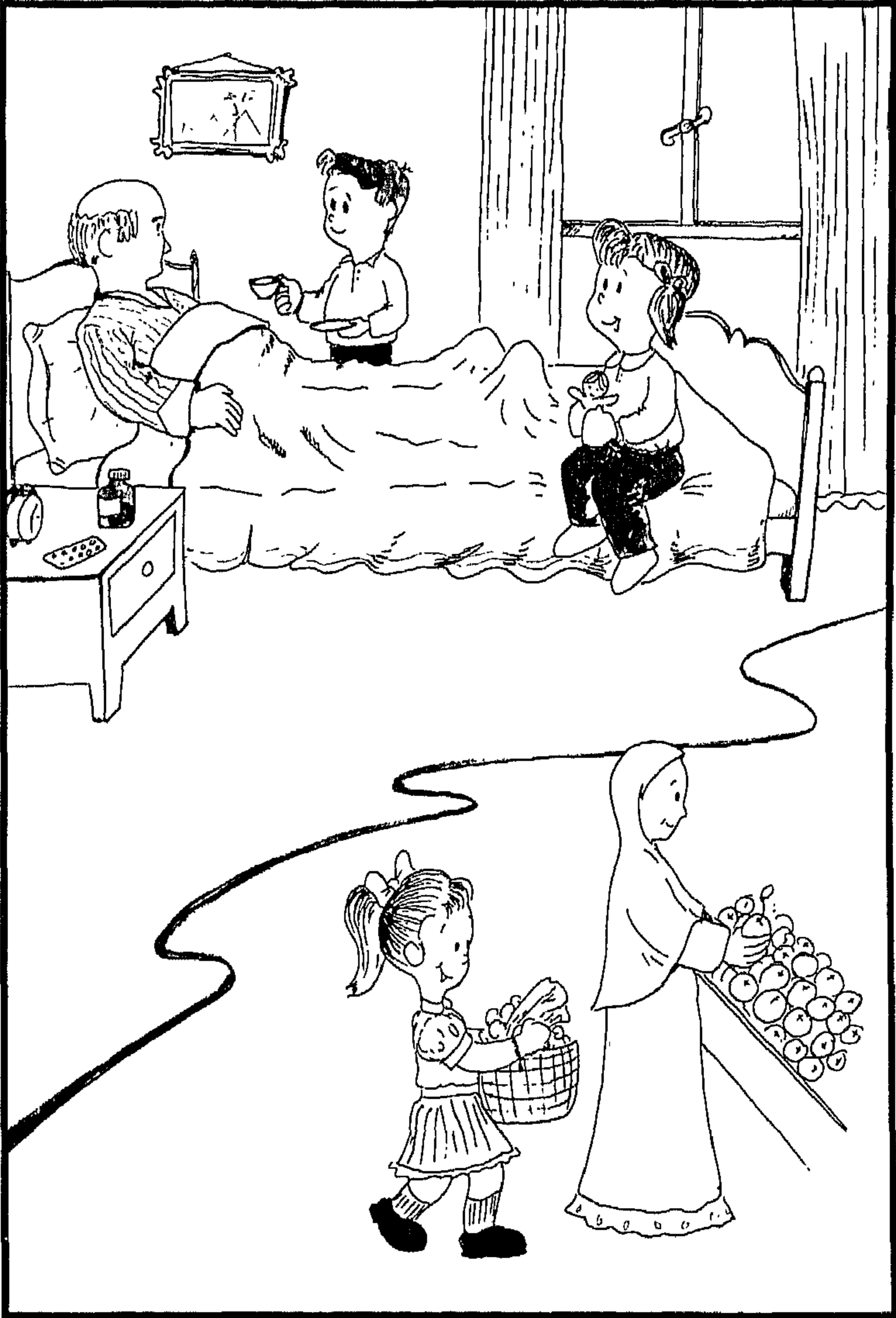
لقد أثبتت تجربة الإنسان الطويلة على الأرض أن الأبناء هم حصن الأمان الأكثر ضماناً للآباء فى ساعات العسرة، التى قد تأتى فى هذا الزمان فى أى وقت، ولكن معدلاتها تتزايد كلما تقدمت بالإنسان

السن، وذلك إذا أحسن الآباء تربية هؤلاء الأبناء.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أن احتياج الآباء إلى الأبناء في ساعات العسرة تلك، ليس احتياجاً مادياً بالضرورة، ولكنه احتياج نفسى بالدرجة الأولى، يعبر عنه القرآن الكريم أدق تعبير في قول الله سبحانه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

إن احتياج الآباء إلى الأبناء مادياً أمر وارد، ولكنه لا يحل المشكلة، بدليل فشل المنهج الغربى في هذا المجال فى حلها، رغم ما يوفره للآباء والمسنين والعجزة والعاطلين عن العمل من نفقات ضخمة؛ لأنه منهج يتغافل هذه الرحمة والمودة وخفض جناح الذل من الرحمة، التى يقوم عليها المنهج الإسلامى، الذى نعيش اليوم فى أمن حقيقى بسببه؛ رغم ضيق ذات اليد.

ورأس مال هذا المنهج الإسلامى الشامل بسيط غاية البساطة، فهو لا يتعدى تقبل الولد عند ولادته، وشكر الله عليه، شكراً يترجم فى الحياة اليومية إلى مناغاة له، ورعاية لأمه، واهتمام بشئونه، ليشب الوليد وينمو لديه إحساس بالتقبل، وإحساس بالأمن، وإحساس بالرضا نتيجة لذلك، مما يُنمى فى قلبه معنى الحب للحياة والأحياء، الذى



يُترجم إلى مشروع حياة لدى الطفل، يتمثل في حب الأب، والسمع والطاعة له، ومراعاة مشاعره، وتمنى أن يرد له الجميل كلما سنحت الفرصة، وهى لا تسنح إلا فى فترات ضعف الأب أو الأم، أو هما معاً، وخاصة فى شيخوختهما، حيث تتحول أوامر القرآن الكريم للابن، كما نراها فى السورة السابقة، إلى موجهات للسلوك، تنبع من نفس الابن، فلا يجد مشقة فى تنفيذها، بل يجد فيها راحة وسعادة ما بعدهما راحة وسعادة.

وهكذا يبدأ المنهج الإسلامى فى استثمار نعمة الأبناء، بزرع الاتجاه الإيجابى نحو الأبناء فى نفوس الآباء، فيبدأ المنهج مبكراً، بمجرد الشروع فى الزواج، حيث يجب أن يقوم هذا الزواج على الاختيار الحر بين الزوجين، القائم على تقوى الله لا على المصلحة الدنيوية، وعلى الود والرحمة، وعلى دور محدد للأب، هو بذل الحب وبذل المال على قدر طاقته، وعلى توفير الأمن، مهما يسر إليه هذا الزواج، على نحو ما يفهم من قول الله - سبحانه - فى سورة النساء، والتى سماها باسم العنصر الحاضن لنعمة الأبناء، حيث يقول الله سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا

أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ
وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ [النساء : ١٩ - ٢١].

وعندما توضع بذرة الطفل في رحم أمٍّ تحس بهذا الأمان وبهذا
الحب؛ فإن الطفل لا بد أن يتطور في بطنها التطور الأمثل، على نحو ما
يقول أهل الطب وأهل الصحة النفسية.

وعندما يَقدف بالابن إلى الدنيا رحمٌ أمه، يجد الترحيب به،
والتكبير في أذنيه، وعقيدةٌ يعبر بها الأب عن فرحته بهذه النعمة
القادمة، ويدعو المسلمين من حوله ليشاركوه فرحته، مثلما يعبر بها
عن شكره لله عليها، مما يزرع في النفوس المحيطة به أن الوليد القادم لا
يمكن أن يكون إلا نعمة من الله، فيكون اتجاه إيجابى عام نحو القادمين
الجدد إلى الحياة، لا بد أن يكون له انعكاسه عليهم؛ فيُحبُّوا الحياة،
ويُحبُّوا الأحياء، وبذلك يتحولون مع الأيام إلى بنَّائين للحياة، مضيفين
إليها، مصلحين لها، فيتحقق شكر النعمة؛ لأن الله - سبحانه - ما
خلقنا إلا لنبنى ونعمر، فهذا هو معنى استخلاف الله لآدم وبنيه في
الأرض.

وإذا كان الأب أو ولى الأمر يُسنُّ له أن يذبح عقيدة شكرًا لله،
وإعلانًا عن ابتهاجه بالقادم الجديد، فإنه مأمور من الله - سبحانه -
بأن يوفر للوليد وأمه الهدوء والأمن، مع الطعام والشراب، كلٌّ على
قدر طاقته؛ حتى يستمتع الطفل الرضيع بلبن أمه، ويستفيد منه،

ويشرب معه الأمان والحنان والهدوء والدفع؛ فيشب صحيحاً من الناحية النفسية والجسمية جميعاً ، على نحو ما نرى في قول الله سبحانه: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ ۝ [البقرة : من ٢٣٣].

ونقف عند الحولين الكاملين اللذين يقررهما القرآن الكريم للرضاعة، ليقول لنا أهل الطب قولتهم في قيمة لبن الأم بالنسبة إلى الابن في هذه المرحلة، ومسايرته لمراحل نمو الابن، وتطوره الجسماني، إضافة إلى أن الطفل لا يرضع من ثدى أمه اللبن وحده، ولكنه يرضع معه الحب والحنان، الذي نراه في حركات يد الأم على جسم ابنها، وفي مداعبة الطفل لثدى أمه، وملاعبة كل منهما للآخر.

إن الطفل يتحسس الحياة في هذه المرحلة من العمر، متمثلة في أمه، وإحساسه بدفع أمه في هذه المرحلة يقوده إلى الاطمئنان إلى هذه الحياة، مما يؤدي إلى النمو السليم، الذي يقوده إلى أن يصبح عنصر خير، يبنى ولا يهدم، ومن ثم يكون إرضاع الأم لطفلها على

هذا النحو، هو أيضاً شكراً لله على النعمة تقدمه الأم، ويساعدها عليه الأب، بما ينفق من ماله ومن وقته ومن جهده، لتوفير المناخ الصالح، لتهيئة ذلك كله.

وقد يقف ضيق ذات اليد حائلاً دون تحقيق ذلك كله، مما يدفع ببعض الآباء في هذا الزمان إلى محاولة التخلص من الجنين، إشفاقاً عليه وعلى إخوته، ومما دفع أيضاً بعض الآباء قبل الإسلام إلى وأد أبنائهم، خاصة إذا كان المولود بنتاً، خوفاً من أمر آخر يُضاف إلى ضيق ذات اليد، وهو السبى بسبب الحرب، أو بغير هذا السبب، ولكن القرآن الكريم يطمئن الآباء من هذه الزاوية، سواء كانوا فقراء فعلاً، أو أغنياء يخشون الفقر، حيث يذكر سبحانه الفقراء بأنه هو الذى يرزقهم ويرزق أولادهم جميعاً، مثلما يرزق غير هؤلاء الأولاد، ممن يمكن أن يكون هؤلاء الفقراء يعولونهم، حيث يقول الله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ومثلما يذكر الله - سبحانه - الفقراء بأن الأمر كله بيده، يطمئن الأغنياء الذين يخشون الفقر، بأن الله - سبحانه - هو الذى يرزقهم، وبأنه هو الذى سيرزق أولادهم مثلما يرزقهم هم، حيث يقول

سبحانه :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّا قَتَلُهُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا ﴿ [الإسراء : ٢٩ - ٣١] .

إننا إذا تيقنا من أن الأبناء نعمة، وشكرنا الله عليها، بصيانتها على النحو السابق، فإن الله سيبارك لنا فيهم، وسيجعلهم عوناً لنا، وعوناً لأنفسهم، وعوناً للمجتمع الذي نعيش فيه، وسوف يُحسب ذلك كله لنا في ميزان حسناتنا يوم القيامة - أيضاً - على نحو ما نفهم من قول الله سبحانه :

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

أما إذا لم نعتبر الأبناء نعمة، ونظرنا إليهم على أنهم عبء علينا وعلى الحياة، كما هو الشائع بيننا في هذا الزمان، فإن ذلك سينعكس علينا في تعاملنا معهم، مما سيؤثر سلباً عليهم؛ فيشبون بالفعل عبءاً علينا وعلى الحياة من حولنا، وهذا هو الضلال بعينه، على نحو ما نفهم من مثل قول الله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَبْشِرُ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم : ٢٨ ، ٢٩] .

إن الأبوة يمكن أن تتحول إلى متعة حقيقية، ويومها سيخف علينا عبء الحياة، وستحلو في أعيننا ونفوسنا؛ لأننا سننظر إليها بعين مختلفة، هي عين البذل والعطاء، لا عين الاستمتاع وإشباع الشهوات والمباهاة الباطلة، ويومها سنحس بأن لحياتنا معنى وهدفًا وقيمة، تتحول بها حياتنا التي نحياها اليوم من النقيض إلى النقيض؛ تمامًا كما تحولت حياة الأعراب بالإسلام، من حياة صاخبة مائجة، لا أمن فيها على النفس ولا على الأهل، إلى حياة كلها أمن وأمل ويقين .



الفصل الثالث

صيانة النعمة

حدد رسول الله ﷺ كيفية صيانة نعمة الولد، بقوله فيما أخرجه الترمذى عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - عنه ﷺ :
« ما نَحَلَ والدٌ ولداً من نَحَلٍ، أفضل من أدبٍ حَسَنٍ ».

وهذا الأدب الحسن أفضل ما يُعطى للابن، وهو لا يكون بالتأديب المؤلف المتعارف عليه وحده، وإنما يكون بوسائل كثيرة تسبقه، منها ما أشرنا إليه من قبل، من حُسن استقبال الطفل، وحسن رعايته، وتوفير الجو الذى ينشأ فيه نشأة سليمة جسدياً، وعقلياً، ونفسياً، إضافة إلى اختيار اسم حسن له .

وليس ممكناً أن يحدث ذلك كله دون أن يسبقه الاختيار الجيد للزوجة قبل الزواج، بحيث تكون ذات دين وخلق؛ حتى تحمل الأمانة مع الزوج حملاً تتقى الله فيه، وبذلك يُضمن ألا تقع عين الطفل من أمه وأبيه إلا على كل حسن، فيجد فيهما معاً خير قدوة له، مما يسهل عملية تعليمه وتأديبه، وتلقينه أدب الشرع وفرائض الدين، تلقيناً لن يتعب الوالدان فيه بإذن الله، وذلك لأن الطفل يقلد الوالدين فيما يفعلان فى البدايات، ولأن الطفل إذا أحب إنساناً فإنه يفعل معه،

ويتلقى عنه بسرعة لا يستطيع الكبار تصورها.

ولو أننا دخلنا إلى هذا الأدب الحسن من هذا الباب الواسع، وهو حب ابننا وتقبله، فسوف نجد أعيننا تقع من هذا الابن على حقيقته شيئاً فشيئاً، فلا نرى فيه إلا كل ما يُسعد النفس ويشرح الصدر، وكل ما يدفع دفعاً إلى الصبر عليه، وإلى الاستمتاع بهذا الصبر - أيضاً - استمتاعاً يدفع إلى مزيد من الصبر، ومزيد من التحمل والتحمل، ومزيد من الاستمتاع بالحياة، مهما يكن واقع هذه الحياة بمنظور الناس في زماننا هذا، وهو منظور يصب في عقولنا وقلوبنا صباً، من خلال حركة الحياة في مجتمعنا المعاصر، ومن خلال وسائل الإعلام التي تفتح علينا منازلنا وأنفسنا وعقولنا وقلوبنا جميعاً، وخاصة التليفزيون، وما يقدمه من أعمال درامية، ومن إعلانات عن السلع أيضاً.

سوف يكون ابننا مُعيناً لنا - إن شاء الله - على أن نغالب مشكلات الحياة من حولنا، إذا دخلنا إلى هذا الأدب الحسن معه من هذا الباب الواسع، لنستنبت الورد وسط أشواك الحياة الحادة العنيفة التي لا ترحم، والتي هي إفراز من إفرازات حياتنا المعاصرة، التي صارت تنجرف انجرافاً مخيفاً في طريق المادية، بعيداً عن قيم السماء التي أتنا من خلال أنبياء الله جميعاً، عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام.

إننا سوف نعتقد أننا نؤدبه الأدب الأحسن، ولكننا سنكتشف بعد ذلك أنه هو الآخر يؤدبنا أدباً أحسن، وأنه يساعدنا على أن نتقرب من الله، وأننا نزداد صفاء كلما اقتربنا منه، وانفعنا معه، ونزداد لله تقوى، ومن الله قرباً، وكم هي حكيمة مقولة العوام: «إن أبناءنا هم الذين يربوننا، ولسنا نحن الذين نربيهم»، وإن كانت هذه المقولة ستكون أكثر حكمة، إذا تم تحويلها لتكون: «إن أبناءنا يربوننا بنفس القدر الذى نربيهم به».

إننا نحاول أن نسوقهم سوقاً إلى حياتنا - نحن الكبار - مع أننا نضيق بهذه الحياة، يدل على ذلك شكوانا المتكررة منها فى هذه الأيام، بحق وبغير حق، وهذه الشكاوى المتكررة من حياتنا، لا بد أن تنتقل إليهم، لأنهم يسمعون منا هذه الشكاوى المتكررة، ويضيقون بها، ويضيقون بنا من أجلها، بينما هم يريدون أن يجرونا إلى حياتهم؛ حياة الفطرة، والبساطة، وعدم الالتواء، وعدم الكذب والخداع.

وليست القضية قضية إعلاء من شأن حياة أطفالنا، وإقلال من شأن حياتنا نحن الكبار، ولكن القضية قضية إقرار حق؛ لأننا لا يمكن أن ندعهم لحياة البراءة والطهر التى يحيونها دون أن نتدخل فى هذه الحياة، ونقودهم منها إلى حياتنا نحن، بكل سوءاتها وأوجاعها، لأننا إذا لم نقدّم إليهم برقتنا وحنونا عليهم، فسوف يقودهم غيرنا إليها بكل القسوة والعنف، وذلك عندما يشبون عن الطوق، ويضطرون إلى

التعامل مع الغير، فى خارج نطاق الأسرة، وسواء كان هذا الغير أنداداً لهم فى السن ممن لم يجدوا فى بيوتهم قلوب الآباء الحانية، فتلمسوها خارجها، أو كباراً ممن أفسدتهم الحياة، فوهبوا أنفسهم لإفسادها، ربما انتقاماً من المجتمع الذى قادهم إلى هذا الفساد، وليس هناك أغلى على المجتمع من هؤلاء الأبناء، فهم أملهم، وهم مستقبله، مثلما هم أمل ذويهم ومستقبلهم، وقرة أعينهم جميعاً.

وسواء اقتنعنا بأن أبناءنا نعمة أو لم نقتنع، وسواء اقتنعنا بأن لديهم ما نتعلمه منهم أو لم نقتنع، وسواء اعتبرناهم نعمة يجب أن نحافظ عليها ونشكر الله عليها أو لم نقتنع؛ فإن الشيء المؤكد أنهم هم ثمرة حياتنا، وأن هذه الثمرة إذا لم نرعها ونتعهد لها، فسوف تفسد، وأن فسادها لا يقف شره عليهم عندما يكبرون، وإنما يتجاوزهم إلى كل المحيطين بهم، وفى مقدمتهم الآباء، بوصفهم المسئولين بالدرجة الأولى عما جرى منهم ويجرى، عند الله وعند الناس جميعاً.

ومن ثم فإنه يكون من الحكمة أن نتعهدهم اليوم، حتى نأمن عدم انحرافهم غداً على أقل تقدير، لأن المتوقع هو أننا إذا تعهدناهم صغاراً، واتقينا الله فيهم، فإنهم يردون هذا التعهد إلينا، براً ووفاء وحُسن رعاية، حينما نتقدم فى السن، ونكون محتاجين كل الاحتياج إلى هذا البر والوفاء.

وحتى لا يكون تعهدنا لهم مجرد وظيفة، فيتحول إلى عبء نفسى

ثقيل، كما نراه يحدث فى مجتمعات الغرب المادى، الغارقة فى متع الحياة؛ فإنه يكون من المستحسن أن نستمتع بهذا التعهد، وأن نحسبه عند الله، فنحنى جميعاً بهذا الاحتساب ثواب الدنيا والآخرة، ونستمتع به وبهذا التعهد الذى نتعده لأبنائنا - كل أبنائنا .

وإذا تعهدنا أبنائنا - هكذا - محتسبين، فسوف نجد كلا منهم نسيجاً وحده، وسوف نجد فى كل منهم ما يشدنا إليه، ويجعل تعاملنا معه بالأسلوب الأكثر مناسبة له، مصدر استمتاع لنا أيضاً، يخفف عنا كثيراً من الجهد الذى نبذله على طريق إعاشتهم، وعلى طريق تربيتهم وتنميتهم أيضاً.

إننا سوف نستمتع بتنوعهم وما بينهم من اختلافات، وسوف نجدهم قد حولوا البيت الذى نعيش فيه إلى شىء أشبه بحديقة غناء، تتنوع ثمارها، ولكن جمالها يكمن فى هذا التنوع، وسوف نرى فيهم العصبى المزاج والهادئ الطبع، كما سنجد الأنانى والاجتماعى والعقلانى والعاطفى، وسوف نجد لكل طعماً مختلفاً، ولكننا سنرى فيهم مجتمعين الحياة فى تنوعها .

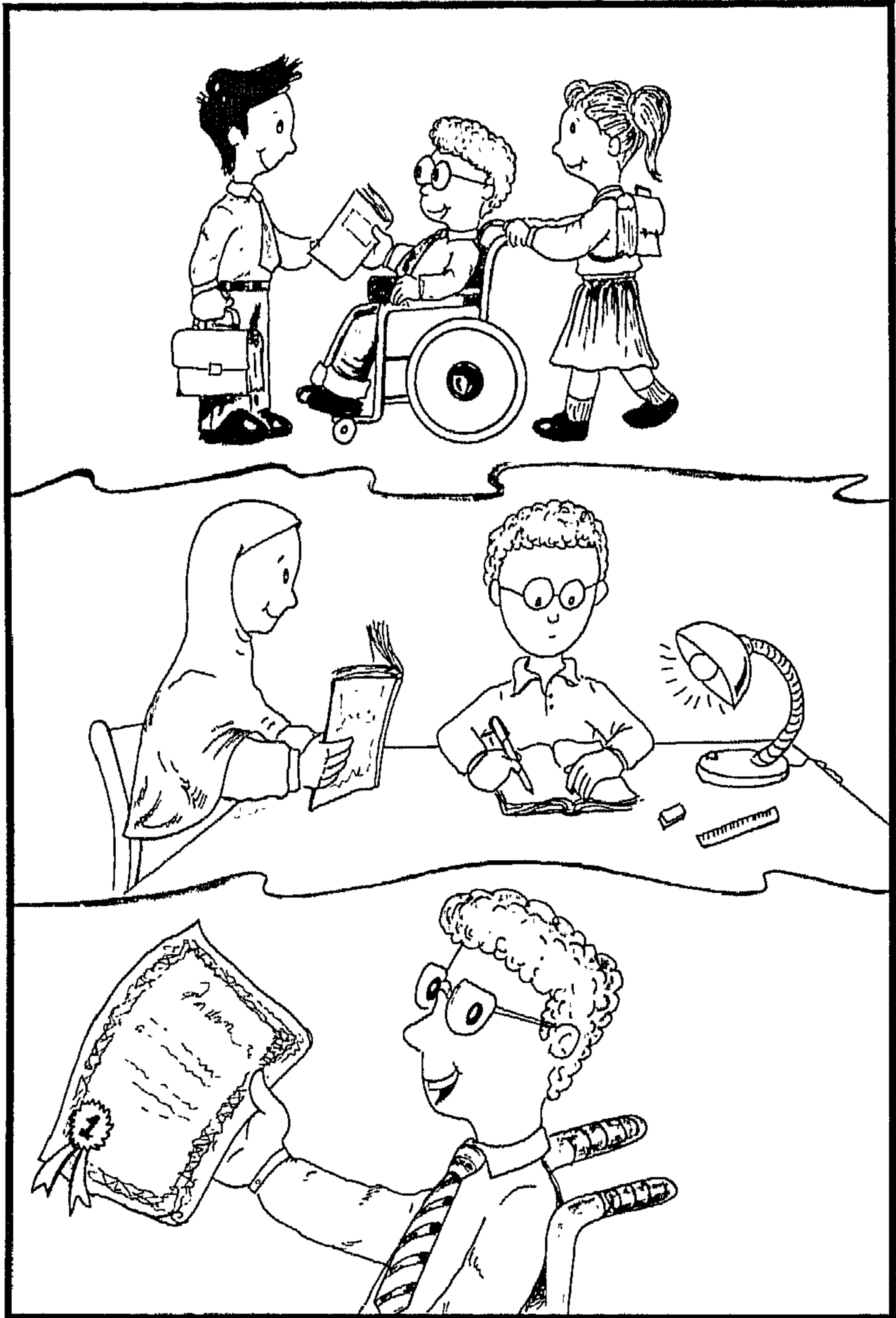
وسوف نجد أجمل هؤلاء الأبناء جميعاً وأقربهم إلينا، أكثرهم احتياجاً إلينا، ومن ثم سنجد قلوبنا جميعاً تلتف حول الصغير، وحول المريض، وسوف نجد أن رحمة الله تطرق باب بيتنا من خلال تجمعنا وتماسكنا، ومن خلال التفافنا حول ضعيفنا، وسنجد البركة

تحل فيه، من خلال هذا الالتفاف وذلك التجمع.

وهكذا سيكون تعهدنا لأبنائنا، فرادى ومجتمعين على هذا النحو، هو بداية كل خير لنا ولهم، فسيجدون فينا القدوة عندما يحبوننا، وسينظر كل منهم إلى نفسه على أساس أنه جزء من كل، وسيتم تحديد أهداف الأسرة في ضوء ظروفها وإمكاناتها، كما سيحدد كل فرد من أفرادها هدفه، في ضوء هذا الهدف العام للأسرة، وفي ضوء ظروفها وإمكاناتها أيضاً، وسيحدد كل فرد من أفرادها دوراً يقوم به، في ضوء هدفه الخاص وهدف الأسرة العام، وسيكون لكل منهم هدف ودور، ومن ثم سيكون للحياة عند كل منهم معنى وقيمة، مما يثرى حياته، ويزيد من البركة التي يُرجى لها أن تشيع في جنبات الأسرة.

وسنجد عجلة الأسرة تدور، دون جهد منا يُذكر، لأن اتضاح الأمور بالنسبة إلى أفراد الأسرة يجعل الحياة مريحة، وإنما الذي يزعج هو ألا يكون هناك خط عام واضح ومتفق عليه.

وسنجد عجلة الأسرة تدور بشكل أفضل، لو أن فيها معوقاً رزقت به الأسرة، حيث يكون لكل أفراد الأسرة هدف محدد واضح هو مساعدة هذا المعوق، وحيث تُشحذ همم هؤلاء الأفراد، وحيث يتجمعون، وحيث يكون النجاح والإنجاز والتجمع، مما يُحوّل هذا المعوق إلى بركة وخير يحل في البيت، على حد ما نسمع كثيراً من العوام، حين يربطون حلول البركة والخير في بيت من البيوت بوجود شيخ هرم أو معوق فيه. ولو أننا اهتممنا بهذا المعوق في الأسرة، وتلمسنا منابت القوة فيه،



وحاولنا توجيهه من خلالها لخير نفسه، لحولناه من عالة علينا إلى عون
لنفسه ولنا وللمجتمع جميعاً.

إن هذه هي قصة نبوغ من نبغوا من المعوقين في ثقافتنا، كأبي العلاء
المعري، ومصطفى صادق الرافعي، وطه حسين، وفي ثقافات غيرنا
مثل: هيلن كيلر، وبيتهوفن.



الفصل الرابع

استمتعت بطفلك

إذا كان طفلك نعمة أنعمها الله عليك، حتى لو كان عاجزاً أو معوقاً، فإن عليك أن تشكر الله على هذه النعمة، بأن ترعاها حق رعايتها، لتجد المدخل المناسب لما سماه رسول الله ﷺ «الأدب الحسن»؛ فإنه يكون من الحكمة أن تستمتع بطفلك استمتاعاً حقيقياً، فهذا هو الدليل الواضح على شكر الله - سبحانه - على نعمته.

كذلك يكون من الحكمة أن تُظهر لطفلك هذا الاستمتاع منذ مولده، وحتى يشب ويكبر، وذلك بحمله ومناغاته رضيعاً، واللعب معه طفلاً صغيراً؛ فإظهار استمتاعك بطفلك إنما هو رسالة حب تصل بينك وبينه، لا بد أن يكون لها صداها عنده، وأن يكون لها مردود إيجابي طيب، حيث يكون عوناً لك على ما تقوم به من أدب حسن نحوه.

ولا تنس أن الرحمة التي أمر الله - سبحانه - بها بين المرء وزوجه، إنما تصب في هذا الاتجاه أيضاً، فهي تهية للجو المناسب لهذا الأدب الحسن المنشود.

ولو أنك أحببت ابنك واستمتعت به على هذا النحو، فسوف تكتشفه على حقيقته، وسوف تنطلق في تربيته من حيث هو حقيقة،

لا من حيث كنت تتمنى أن تراه، إلى ما تريده أن يكون عليه .

إنك تريد أن تراه يفهم ويعى ويدرك، ويتصرف تصرف الكبار الناضجين الواعين المسؤولين، المقدرين لعواقب الأمور، وهذا من حقلك ، ولكنك ستراه فى تصرفاته معك ومع غيرك فى البيت دون ذلك كثيراً، ومن ثمَّ كان احتياجه إليك، لتضع له خطة ذكية، تنقله بها من حيث هو إلى حيث تريده أن يكون .

سوف تراه محدود الخبرة، وعليك أن تستمتع بتنمية خبرته، فهذه هى متعة الأبوة الحقيقية؛ أن تزرع فى أرض - هى بعون الله - خصبة، لو أنك شكرت الله عليها .

وهذه الأرض الخصبة التى وهبك الله إياها من خلال طفلك، حدد القرآن الكريم لنا معالمها فى مثل سورة النحل؛ حيث يقول الله سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

ولو أننا تأملنا معالم هذه الأرض الخصبة كما حددتها الآية الكريمة، لوجدناها نفس المعالم التى يمنُّ بها الله - سبحانه - على عباده، باعتبارها نعمة الله الكبرى التى أنعم بها على الإنسان، فكان واجباً عليه شكر الله - سبحانه - عليها، على نحو ما نرى فى مثل قول الله سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

[المؤمنون : ٧٨].

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢٣].

كما سنجد هذه المعالم، هي نفس المعالم التي يتكون منها الكيان
الإنساني الراشد المكلف العاقل، والتي يقدر بها على فعل الخيرات
فيدخل الجنة، مثلما يقدر بها على اجتراح السيئات فيدخل النار،
على نحو قول الله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦].

ومن ثم، فإن تنمية السمع والبصر والفؤاد في اتجاه الخير يجب أن
تكون هدفنا نحن الآباء، كما يجب أن يكون الاستمتاع بطفلنا من
خلالها أيضاً، فلا ندعها تقع منه إلا على كل جميل، حتى تكون
منافذ جمال إلى نفسه، فيكون جميلاً، كما نريده أن يكون، وإلا فلا
تلومنا إلا نفسك؛ وإن كان ذلك صعباً في هذا الزمان، لأنه يرانا ويرى
غيرنا، من خلال التليفزيون على الأقل، ولكنه قدرنا الذي يجب أن
نحتسب عند الله ما نبذله من جهد فيه، لنجنبه مخاطر هذا الغير.

إن نعمة السمع والبصر والفؤاد التي يولد طفلنا مزوداً بها، لا تعدو

أن تكون المادة الأولية للإمكانات والاستعدادات التي نقوم نحن الكبار ببلورتها وتشكيلها، من خلال تعاملنا معه، وتفاعله معنا ومع غيرنا من الناس والأشياء جميعاً، لتوجيه الطفل الوجهة التي نرغب في توجيهه إليها، ومن ثم فإننا يجب ألا نضيق ذرعاً بما يصدر عنه في البدايات، مما لا يعجبنا، وهو كثير وكثير، وإنما يجب أن ننطلق من هذا الذي يصدر عنه، للتوجيه والقيادة الذكية الواعية.

إننا نضيق بحركته التي لا تهدأ، خاصة عندما يترك مهده ويبدأ يتحرك بيننا، مع أن هذه الحركة دليل حيوية ونشاط، ودليل مستقبل واعد إن شاء الله، إذا نحن تقبلناها واستوعبناها، واستثمرناها أيضاً، فعلمناهم من خلالها، بدلاً من أن نحاول الحد منها، فقد كان رسول الله ﷺ يشجع الأطفال على اللعب، ويشاركهم هذا اللعب أحياناً، ليعلم صحابته وأمته كلها كيف تتعامل مع حركة أطفالها ونشاطهم، بل إن كُتب السيرة تذكر أنه ﷺ قد أطال السجود في إحدى الصلوات، حتى ظن الصحابة - رضوان الله عليهم - أنه قد قضى (أى مات)، فإذا بهم يكتشفون أن الحسين قد اعتلى ظهره وهو ساجد، فلم يُرد ﷺ أن يزعجه، فانتظر حتى نزل.

لقد أراد النبي ﷺ أن يعلمهم - رضوان الله عليهم - ويعلم أمته من خلالها، كيف تتعامل مع صغارها، وكيف تستمتع بهم، حتى في الصلاة، حيث الوقوف بين يدي الله - سبحانه - كأنما يريد أن يقول لأمته: إن الاستمتاع بأطفالنا عبادة أيضاً، كعبادة الصلاة.

ولنعرف أن حركة طفلنا نعمة من الله، يمن بها عليه وعلينا، فإن علينا أن نتصور ماذا لو كان هذا الطفل لا يتحرك لأى سبب من الأسباب؟

ومثلما نضيق بحركة طفلنا فنسئ استغلال النعمة التى أنعم الله بها عليه وعلينا من خلالها، نضيق بأسئلته التى لا تنتهى، ويلح فى كل منها إلحاحاً، ويُخرجنا فى بعضها إحراجاً، مع أن أسئلة الطفل دليل ذكاء، ومؤشر على مستقبل واعد - إن شاء الله - إذا نحن فتحنا صدورنا لهذه الأسئلة، وشجعناه عليها، ورحنا نأخذ بيده لنعلمه، ونتعلم معه ما لا نعرفه.

إن مجرد تعلمنا معه قيادة لنا وله نحو مستقبل طيب إن شاء الله .
إننا سنزداد فهماً له، وسنزداد كذلك قدرة على توجيهه، فتزداد ثقته بنا، فنكون قبلته التى يتجه إليها كلما تعرض لمشكلة فى مستقبل أيامه، لنناقشه فيها، بدلا من أن يتلقفه غيرنا، ممن يوجهونه وجهة قد نندم نحن عليها.

وإذا ما تيقننا من أن أسئلة الطفل نعمة من نعم الله التى أنعم بها عليه وعلينا، فإننا سنشكر الله عليها، بأن ننميها لدى الطفل، ونتخذ منها مدخلا لقيادته وتعليمه، وسنجد التقدم العلمى يساعدنا كثيراً فى هذا المجال، فسنجد المكتبات العامة، والمكتبات المدرسية، ومكتبة الطفل، كما سنجد قناة المعلومات فى التليفزيون، وسنجد وسائل

عدة، نحصل من خلالها على المعلومات التي يسأل الطفل عنها،
وسنعرف هذه المعلومات معه، وسيُضاف إلينا مثلما يضاف إليه،
وسنجد حياتنا معه أكثر متعة، وأكثر ثراءً.

والطفل بوصفه كياناً بشرياً قائماً بذاته، لا بد أن يكون مختلفاً عن
إخوته في داخل الأسرة، ومختلفاً عن غيره من الأطفال خارجها، وهذا
هو الدرس الأول الذي سنخرج به من خلال دراستنا لطفلنا ولإخوته،
محاولين التسلسل إلى نفسه لنتفهمه، وهو ما لا تستطيع المدرسة بعد
ذلك أن تتقبله، ولا أن تعامل طفلنا على أساسه لأسباب كثيرة، لا بد
أن نلتمس لها العذر فيها.

إن أمام المدرس في الفصل عشرين أو ثلاثين كياناً بشرياً على
الأقل، يتعامل معها جميعاً في وقت واحد، ويصعب عليه أن يتعامل
مع هذه الكيانات كأفراد، إلا بصعوبة؛ إلا أننا نحن الآباء لن نجد
لأنفسنا العذر الذي يجده المدرس في الفصل لنفسه، إلا أن يكون هذا
العذر هو الانشغال بالحياة، وهو عذر لا يمكن قبوله، لأن المفروض أن
ابننا هو الحياة وهو الأمل، وهو بالنسبة إلينا الجنة والنار أيضاً.

وإذا كان قد كُتب على ابننا أن يحس بضيق ذاتيته في خضم
المدرسة الواسع، الذي لا مهرب منه في هذا الزمان، فإن معنى ذلك أن
العبء يكون علينا نحن الآباء مضاعفاً، لنعرضه عن ذلك بمزيد من
الانشغال به في المنزل، وبمزيد من الاستمتاع به أيضاً، وبذلك نضمن

لابننا فائدة مزدوجة، لا يحرم فيها من التفرد الذى هو أصيل فيه، وسمة غالبية له، ولا يحرم من الحياة فى جماعة فى المدرسة، ولا من التعلم جميعاً.

سيكون العبء ثقيلاً أول الأمر – أول الانتقال إلى المدرسة – ولكن هذا العبء سيخف يوماً بعد يوم، بمجرد تكيف ابننا مع الحياة المدرسية، وسوف يجد فيها بعد ذلك متعة، إذا نحن أحسنّا قيادته فيها، وكنا أذكياء فى تعاملنا معه، وفى تناولنا لمشكلاته مع مدرسيه، ومع زملائه، ومع النظام الجديد الذى بدأ ينخرط فيه، وسوف يسهل اتصالنا بالمدرسة كثيراً من الصعوبات التى تعترض سبيلنا فى هذا المجال.

والمهم هو أن تستمتع بطفلك أينما كان: فى البيت، وفى الشارع، وفى النادى، وفى المدرسة؛ لتقترب منه فيها جميعاً، فلا يحس بابتعادك عنه، أو انشغالك بسواه، فينصرف عنك، ويولى وجهه شطر غيرك.



الفصل الخامس تعلّم منه طفلك ومعه

قد لا يرى بعضنا غضاضة في أن يستمتع بابه، وفي أن يلعب معه، وفي أن يلاعبه، ولكن كثيرين منا سيتردّدون في أن يتعلموا مع أبنائهم، فضلاً على أن يتعلموا منهم.

إنها ثقافة العالم الثالث، التي تربّينا في أحضانها، وصرنا نحن تعبيراً سيئاً عنها، عندما صارت مقاليد الأمور بأيدينا. لقد ربّينا في إطار هذه الثقافة، التي لا يُسمح فيها للصغير بأن يكون له وجود يُذكر في حضور كبير، أيا كان الكبير والصغير في هذه المعادلة، بل إن المثل الأعلى في هذه الثقافة هو أن الإنسان إذا تصادف وجوده في مجتمع لا كبير له فيه، فإن عليه أن يشتري له كبيراً.

وإذا كان لِمَثَل هذا المثل الأعلى وجاهته في عصر كنا نحن فيه الصغار، فإنه لا يجوز في عصرنا هذا؛ حيث يلعب أطفالنا اليوم بأجهزة معقدة، نخشى نحن الكبار الاقتراب منها، والتعامل معها، إلا مضطرين.

لقد كانت ثقافة العصر الذي كنا صغاراً فيه ثقافة بسيطة غاية البساطة، وكانت خبرة الكبار مفيدة لنا ونحن صغار، وما هكذا ثقافة عصرنا الذي نعيش فيه في هذه الأيام. لقد تعقدت هذه الثقافة

بشكل صار يمثل عبئاً علينا نحن الكبار خاصة، ويكفى أن تفتح جهاز التلفزيون أمامك لترى كل يوم تغييراً جديداً، ومخترعاً جديداً، وحياة جديدة، عندنا وعند غيرنا.

ولا أظن أن أحداً منا سعيد بهذه التغيرات المتلاحقة والسريعة، ولكننا مضطرون إلى أن نعيش في إطارها، سواء رضينا بها أو لم نرض، فريضانا أو عدم رريضانا لن يغير من الأمر شيئاً، ولكن رريضانا بها سيساعدنا على التكيف لها ومعها؛ فلا نكتئب ولا نحزن ولا نشقى، كما هو حالنا نحن الكبار في هذا الزمان في كل مكان.

وإذا كان وقتنا لا يتسع لملاحقة هذه التغيرات، فإنه يتسع لصغارنا بطبيعة الحال، ويكون من الحكمة أن نفسح صدورنا لهم، لتعلم منهم ومعهم، ولتناقشهم فيما يجرى، لنقيم بيننا وبينهم جسراً من الثقة والمودة نحن في أشد الحاجة إليه في تعاملنا معهم، وإلا تركناهم يقيمون هذا الجسر مع غيرنا، ربما ممن نحرص ألا يتعاملوا معه أصلاً.

إن لهم لغة في الكلام اكتسبوها من هذه المتغيرات من حولنا وحولهم، وسيكون مفيداً لنا ولهم أن نتعلم لغتهم، لنحاورهم بها، وليفتحوا لنا صدورهم ويتعلموا لغتنا التي نحرص على أن نعلمهم إياها.

وإن لهم أسلوباً في التعامل اكتسبوه من هذه المتغيرات قد لا يعجبنا، ولكننا مضطرون إلى أن نعرفه، لنحسن التعامل معهم،

ولنعلمهم أساليبنا التي نريد أن نعلمهم إياها، فيقبلوها منا .

لقد خلقوا لزمان غير زماننا، على حد تعبير الإمام على بن أبي طالب - رضى الله عنه - ومن ثم يكون من الحكمة أن نسابقهم إلى هذا الزمان، لتفهمه، ونعرف أبعاده؛ حتى نستطيع أن نقودهم إليه قيادة واعية حكيمة، لا أن نحول بينهم وبين اقتحامه .

وإذا كان انشغالنا بتوفير حياة كريمة لأبنائنا مما يحول بيننا وبين أن نسابقهم إلى هذا الزمان الذى هو زمانهم، فلا أقل من أن نتفهم أبعاده من خلالهم، ليحسوا بقربنا منهم وثقتنا بهم، وليتفهمونا مثلما نتفهمهم، فيقبلوا منا مثلما نتقبل منهم، وليتأكدوا عملياً من أن الحياة تعليم وتعلم، ومن أنها لا تكون ذات قيمة إلا إذا كانت الحكمة ضالة الإنسان فيها، والحكمة لا تأتى إلا من الاستماع إلى رأى الآخر، والقدرة على مناقشته .

والتعليم والتعلم هنا ليس تعليمًا للعلم وحده وتعلمًا له، بل هو تعليم للحياة وتعلم لها، حتى إن العلم ذاته إذا ابتعد عن هذه الحياة فإنه يكون قليل الفائدة عديم الجدوى عقيمًا .

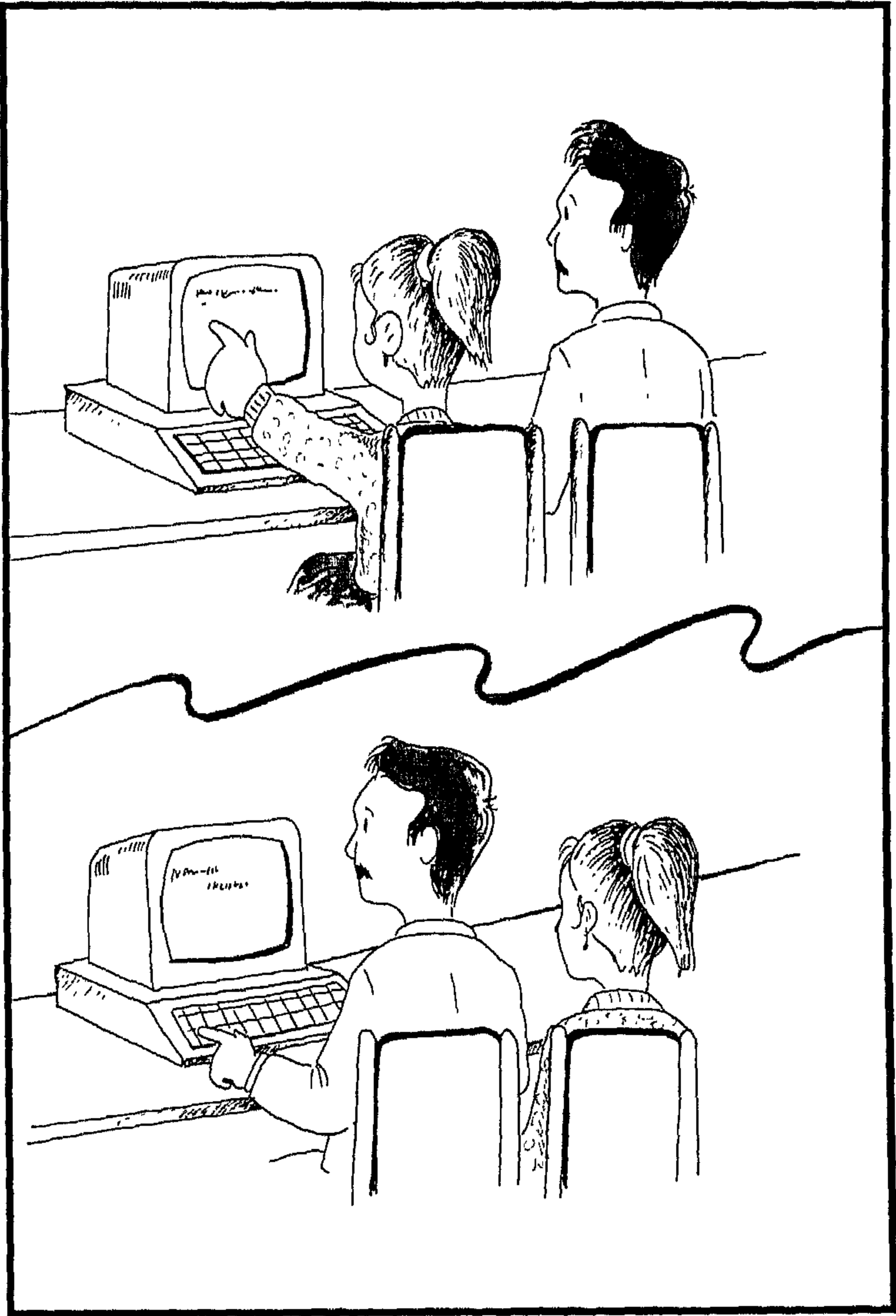
إن العلم لا يستمد قيمته من ذاته، وإنما هو يستمدّها من قدرته على الانغماس فى الحياة، ومناقشة قضاياها، وحل مشكلاتها، لتكون حياة أفضل .

وإذا كان أبنائنا قد كُتب عليهم أن يتلقوا فى مدارسهم علمًا بعيداً

عن الحياة التي يحيونها، مما كان من أسباب تعثرهم الدراسي، فإن بمقدورنا نحن أن نعالج هذا الخلل بأنفسنا، من خلال قيادتهم في البيت، قيادة واعية رشيدة، نحو القراءة، فنحببهم فيها، بأن نوجههم إلى القراءة، بحيث تكون في خدمة قضايا الحياة الشاغلة لهم، ونناقشهم فيما يقرءون، لتقودهم القراءة إلى مزيد من القراءة، وبذلك ينمون ونمو معهم، ونتعلم معهم ونتعلم منهم كذلك.

ولا يقف تعليم أبنائنا والتعلم منهم عند حد القراءة وحدها، لأنهم في مرحلة الطفولة المبكرة التي تلي مرحلة المهد لا يستطيعون هذه القراءة ولا يصبرون عليها، ومع ذلك فإن بمقدورنا أن نعلمهم ونتعلم منهم من خلال لعبهم، على نحو ما نتعلم من رسول الله ﷺ، ومما كان يفعله مع الأطفال تحديداً، فقد كان ﷺ - كما نقرأ في سيرته العطرة - يشجع الأطفال على اللعب، بل ويلعب معهم أيضاً، ليعرف من خلال هذا اللعب عنهم، ويعلمهم من خلال هذا الذي يعرفه أيضاً.

ولو أننا بدأنا تعليمنا لأطفالنا وتعلمنا معهم من هذه المرحلة المبكرة - مرحلة اللعب - ما وجدنا صعوبة في الانتقال معهم من مرحلة اللعب - في تلك المرحلة المبكرة من طفولتهم - إلى مرحلة التعلم من خلال القراءة في المرحلة التالية لها، لأننا سننتقل معهم إليها برغبتهم ورضاهم، بل وبحبهم أيضاً، وبذلك نحقق مع أطفالنا وبهم



أمر رسول الله ﷺ فيما أخرجه البزار والطبراني عن أبي بكره رضى الله عنه : « اغدُ عالماً أو متعلماً، أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامس فتهلك ».

أو فى مثل قوله ﷺ فيما رواه عنه ابن عمر - رضى الله عنهما - فيما أخرجه ابن السنى : « قلب ليس فيه شىء من الحكمة كبىء خرب، فتعلموا وعلموا وتفقهوا، ولا تموتوا جهلاً، فإن الله لا يعذر على الجهل ».

إنها حياة التعلم الرحبة التى تقودنا إلى الله، ويجب أن نقود أبناءنا إليها، ولن يتيسر لنا ذلك إلا إذا كنا نحن صورة حية لها، لا مع أندادنا أمام أبنائنا فقط، ولكن مع أبنائنا أيضاً، فتعلم منهم؛ خاصة وأنَّ عندهم ما يمكن أن نتعلمه منهم بالفعل.

ويكفى أننا سنتعلم فى تعاملنا معهم الصبر، ولكنه الصبر الجميل، كما وصفه الله - سبحانه - على لسان نبي الله يعقوب عليه السلام : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨].

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ٨٣].

إننا إذا كنا نمثل التراث الثقافى والحضارى للأمة، ونُعبرُ تعبيراً حياً

عنه، فإن أطفالنا يمثلون المستقبل، ومنطقيٌّ أن نكون نحن من كفئتين على الماضي ومتشبهين به، وأن يكونوا هم مولّين وجوههم شطر هذا المستقبل، ومنطقيٌّ أيضاً أن يكون بيننا وبينهم - نتيجة لذلك - اختلاف، قد يصل إلى حد الصراع، الذي يجب أن نستثمره لصالحنا وصالحهم وصالح الأمة.

إنهم في حاجة إلينا، حتى لا ينفلتوا منا فيضِلوا ويُضِلوا، ونحن في حاجة إليهم - أيضاً - حتى لا نحمد فنتخلف.

إن جيلَينا لابد أن يتواصلا، ولابد أن يتفاعلا، ولن يكون ذلك إلا بصبر منا عليهم، وهم يحاولون الانفلات منا، لنعيدهم إلينا برفق وبحب، فالمفروض فينا أننا خبرنا الصبر، وذقنا حلاوته، والمتوقع منهم هو أنهم لا يصبرون.

ولو أننا هيانا لهم برنامجاً جيداً ملء وقت فراغهم، لعلمناهم الصبر أيضاً، فنحن نسمع عن اختراعات للأطفال عند غيرنا، ونسمع عندنا عن أطفال استطاعوا حفظ القرآن الكريم مثلاً.

إن برنامجاً جيداً نملأ به وقت فراغ أطفالنا، كفيل بأن يقربنا منهم، وبأن يجعلنا نرى ما زودهم الله - سبحانه - به من طاقات وإمكانات، نستطيع - إذا استثمارناها - أن نرى - بحق - نعمة الله فيهم.



الفصل الشاوي

شاو رطفلك

يصف الله - سبحانه - الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون في سورة الشورى بعدة صفات كلها طيبة، ومنها قوله - سبحانه - عنهم:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى : ٣٨].

إن هؤلاء الناس الطيبين يتوكلون على الله حقاً، ولكنهم يأخذون بالأسباب، التي هي من عند الله أيضاً، ومن هنا كان أمرهم شورى بينهم، وكان أمر الله لرسوله ﷺ بأن يشاور أصحابه في الأمور كلها، حتى يؤلف بين قلوبهم من جانب، وحتى يعلم أمته أن تأخذ بالأسباب في كل شئونها، على نحو ما نرى في قوله سبحانه :

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

وواضح أن المشاورة تكون بخصوص أمر لم ينزل بشأنه وحى ؛ لأن أمر المؤمنين مع ما نزل بشأنه وحى معروف، حدده القرآن الكريم بقوله

سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ وَلَا الْمُؤْمِنَةِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وما دامت المشاورة تتصل بأمر من أمور الدنيا لم ينزل بشأنه وحى؛ فإنها تكون فنا يأمرنا الإسلام به، وبالوقوف على آلياته وإتقان مهاراته، ومعرفة أبعاده، وهو ما يجمعه كله رسولُ الله ﷺ فيما أخرجه أبو داود في مراسيله، والبيهقى فى سننه عن خالد بن معدان - رضى الله عنه - : « الحزم أن تُشاور ذا رأى، ثم تطيعه » .

وذو الرأى المراد فى حديثه ﷺ هو العارف بالأمرالذى تتم المشاورة بشأنه، أو الخبير به، أو العامل فى حقله، كالفلاح بالنسبة إلى الزراعة، والطبيب بالنسبة إلى الأمراض، والمرأة بالنسبة إلى شئون النساء، والطفل بالنسبة إلى ما يخص الطفولة .

وهكذا تكون مشاورة الأب لطفله فيما يتصل بأموره دليل ذكاء ونُضج من الأب المشاور، وليست دليل ضعف فى شخصيته، كما يشيع لدى كثير من العوام والجهال فى مجتمعاتنا العربية خاصة، وتكون المشاورة هى السبيل الأمثل لتوقير الأب واحترامه عن حب له، وليس بسبب خوف منه لا يلبث أن ينقلب إلى تمرد عليه بمجرد زوال أسباب هذا الخوف، كأن يشتدُّ عودُ الابن، وتضعف بنية الأب، كما

تطالعنا الصحف كثيراً في أخبار الحوادث في هذا الزمان .

وتُعتبر مشاورة الابن فيما يتصل بشئونه أولى خطوات إصلاح شأنه، لأننا سنعلمه من خلال تحاورنا معه : كيف يزن الأمور، وكيف ينظر إلى أية قضية تُعرض له من منظوراتها المختلفة .

إننا سنعلمه أسلوب التفكير العلمي في مسائل حياته، مما يسهل لنا بعد ذلك توجيهه تعليمياً، فيُجنبنا مشاق هذا التعليم، الذي صار اليوم الشغل الشاغل لكل أب، ولكل بيت .

وسوف ننمي ذاته ونرتقي بها، وهو ما نحرص عليه بالضرورة، حتى يشب معتمداً على ما أودعه الله فيه من مواهب وإمكانات وطاقات؛ ليستغلها جميعاً الاستغلال الأمثل، فيكون كسباً لنفسه، وكسباً لنا، وكسباً لأمته، وربما كسباً للإنسانية كلها، التي ما تقدمت في شتى نواحي الحياة إلا بإبدعات المبدعين من أبنائها، الذين نُميت ذواتهم تنمية طيبة على هذا النحو الذي اهتم به الإسلام كثيراً، كما تعلمنا كُتب التاريخ والسير، وكما نستدل منها على تعامل الرسول ﷺ مع الأطفال، وعلى تعامل صحابته - رضوان الله عليهم - وعلى تعامل التابعين، وتابعي التابعين، ممن انتصرت دولة الإسلام وانتشرت حضارته على أيديهم .

وإذا عوّدنا أبنائنا على أن نناقشهم فيما نتخذه من قرارات بشأنهم منذ طفولتهم المبكرة، فسوف نسعد كثيراً بسرعة نضجهم كلما

تقدمت بهم السن، حتى إننا سنجدده أمراً طبيعياً أن نشركهم بعد ذلك فى المسائل الخاصة بنا نحن، والتي نعتبرها مسائل كبار، وسوف نسعد برؤاهم، ونراها رؤى بكرة، فيها بركة وفيها خير، وبذلك سوف نجنى - إن شاء الله - ثمار ما غرسته أيدينا حلوة شهية.

لقد دربناهم على التفكير الواعى الناضج المستقيم منذ البدايات، ومن ثم فإن الخير سيكون هو الثمرة - إن شاء الله - فى النهايات.

وسوف نجدهم دوماً عوناً لنا على الحياة، فلن يُرهقونا بطلبات لا تتحملها إمكاناتنا المادية خاصة، بل إننا سنجد فيهم عوناً لنا على الحياة، وسنجد عبء هذه الحياة يخفُّ عنا؛ لنتفرغ لأمر تقودنا وتقودهم إلى مزيد من النجاح، ومزيد من الرزق، ومزيد من الخير.

وسوف يتعلل بعضنا بعِلل كثيرة لتركهم مشاورة الأهل والأبناء، سواء فيما يتصل بشئون الأطفال أنفسهم، أو ما يتصل بشئون الأسرة، ولا بد أن تكون لتنحيتهم عن المشاركة فى هذه الشئون أسباب وجيهة لديهم، لعل من بينها: الإشفاق عليهم، وعدم تحميلهم هموم الحياة معهم، وهو سبب قد يبدو وجيهاً إلا أنه قاتل لمعنى الحياة لدى هؤلاء الأبناء، وهو قد يريحهم فعلاً، إلا أنه يُشقيهم أيضاً، لما يُعمق فى نفوسهم من معنى العجز عن تحمل المسئولية فضلاً عن مواجهة الحياة.

على أن ما نقرؤه من أخبار الحوادث فى الصحف اليومية تدلنا على أن أبناءنا لا يستسلمون لهذا العجز الذى يتصوره بعض الآباء فيهم،

حيث تتلقفهم أيدٍ غيرُ رحيمة بهم، لتوجههم وجهات منحرفة، يثبتون بها لأنفسهم قدرتهم على الفعل، وعلى تحمل المسؤولية، وعلى الاقتحام.

وأيا كان السبب الذى يبرر به بعضُ الآباء لأنفسهم أن ينفردوا باتخاذ القرارات دون أبنائهم، حتى ما يتصل منها بهؤلاء الأبناء أنفسهم، فإن مخاطر هذا الانفراد على الأبناء، بل على الآباء أنفسهم فيما بعد، لا تُعدُّ ولا تُحصَى، ويكفى أن ذلك مما يقيم بيننا وبينهم حاجزاً نفسياً، يصعبُ إزالته فيما بعد، مما قد يقود إلى انفلات هؤلاء الأبناء منا؛ إن لم يؤدِ إلى ما نعتبره عقوباً لنا، ونكون نحن الذين قُذناهم إليه، ولو عن غير قصدٍ منا.

إنَّ أبنائنا قد يبدوون لنا طيبين مسالمين، محدودى الخبرة، ولكنهم قد لا يكونون كما نراهم أو نتصورهم بالضرورة، بل إنهم قد يكونون فى بعض الحالات عكس ذلك تماماً، وبُعدنا عنهم مما يحول بيننا وبين أن نراهم على حقيقتهم، فيزيد البُعد النفسى بيننا وبينهم، ويكون ما نسمع عنه ونقرؤه ونستغربه والعياذ بالله.

أما عندما نقرب منهم، فإننا سنراهم على حقيقتهم، وقد نراهم مُزعجين لنا، ولكننا يجب أن نستمتع بهذا الذى نراه إزعاجاً، وأن نوجههم من خلال ما نراهم عليه إلى ما نحب أن يكونوا عليه.

إننا إذا ابتعدنا عنهم بحجة أنهم مزعجون، فإنهم سيكونون

أسعد ببعدهم عنا، بحجج أخرى نضيق نحن بها عندما نسمعها منهم، ولكنها تسعدهم، ثم تكون النتيجة أن تزداد الهوة بيننا وبينهم اتساعاً.

قد تكون لنا - نحن الكبار - خبراتنا الطويلة والعريضة والمعقدة والمفيدة أيضاً، وهى ميزة لا بد أن أبناءنا يحسدوننا عليها ويتمنّونها لأنفسهم، لو أننا قبلناهم على علاقتهم، بخبراتهم المحدودة.

على أن هذه الخبرات الطويلة والمعقدة والمفيدة وليدة التجربة الذاتية لكل منا فى الحياة، ومن ثم فإنها ستكون ضارة بغيرنا إذا أردنا فرضها عليهم، ويكون المفيد فى هذه الحالة أن ندعهم يمرون بخبراتهم الذاتية، ونساعدهم على اجتيازها بأكبر فائدة ممكنة، وبأقل تضحيات، بما توافر لدينا من خبرات وتجارب.

وكلنا يعلم أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على تفجير المواهب والإمكانات لدى أصحابه - رضوان الله عليهم - وخاصة مواهب الشباب منهم؛ فقرأنا فى البدايات عن الدور الذى قام به «على بن أبى طالب» فى ليلة الهجرة، وعن الدور الذى قامت به «أسماء بنت أبى بكر» فى عملية الهجرة من مكة إلى المدينة، وقرأنا فى النهايات عن توليته ﷺ لأسامة بن زيد قيادة الجيش، وهو لم يصل بعد إلى سنّ العشرين، وهى البعثة التى رفض أبو بكر الصديق تغيير قيادتها، فأنفذها على النحو الذى شكلها عليه الرسول ﷺ.

لقد كان ﷺ يثق بإمكانات أطفال المسلمين وشبابهم، وعلينا أن
نقتدى به، لننجو وينجو أطفالنا؛ وتسير أمتنا إلى الأمام، بعد أن
نُحوِّل ما أودعه الله - سبحانه - فيهم من طاقات وإمكانات إلى عوامل
بناء، كما كانت في هذا التاريخ الإسلامي المبكر.



الفصل السابع حمل طفلك المسؤولية

إن من أكبر المشاكل في حياتنا مع أبنائنا على وجه العموم، ومع أطفالنا خاصة أننا نريد أن نراهم كما نحب لهم أن يكونوا، لا على النحو الذي فطرهم الله - سبحانه - عليه. وإذا تصرفوا على النحو الذي نريدهم أن يتصرفوا عليه، فلماذا تكون حاجتهم إلينا؟ وعلام نُؤجّر؟

ولأننا نريد أن نرى أبنائنا صغاراً على نحو مختلف عن ذلك النحو الذي يستطيعون أن يكونوا عليه، فإننا نحملهم فوق ما يطيقون، ونحمل أنفسنا أيضاً فوق ما نطيع، وتكون النتيجة أننا نُفسد عليهم حياتهم، مثلما نُفسد على أنفسنا حياتنا، لبدأً مسلسل مشاكلنا معهم، ومشاكلهم معنا.

إنهم لا يستطيعون أن يكونوا إلا أطفالاً، ونحن لن نستطيع أن نتعامل معهم بنجاح إلا من خلال طفولتهم تلك، التي يراها بعضنا بريئة، ويرaha بعضنا الآخر غير ذلك، والتي رُكبت فيها المعالم الأساسية لشخصية ابننا، فلا نستطيع قيادته إلا من خلالها، ومن ثمَّ يكون فهمنا الحقيقي له، هو مفتاح نجاحنا في قيادته نحو المستقبل الذي ننشده له.

ولقد تعودنا في بيئاتنا العربية - خاصة - أن نخطط لأبنائنا حياتهم منذ بدايات تعاملنا معهم، فنختار لهم ما يلبسون، وما يأكلون ويشربون، ونختار لهم حتى مَنْ يُصادقون، وَمَنْ يحبُّون وَمَنْ يكرهون، مثلما نختار لهم الطريقة التي يتعاملون بها مع الناس والأشياء، ناسين أننا بذلك نقتل مبادرتهم الفردية قتلاً، مع أنهم مبادرون، وقادرون على المبادرة وعلى الفعل.

وقد يكون تدخلنا في شئون أبنائنا على هذا النحو الكامل أمراً مطلوباً في سنى المهد وما بعدها بقليل؛ لتأمين سبُل هذه الحياة، التي لا يقدرُونَ - بالفعل - عليها بدوننا، ولكنهم ما إن يصيروا قادرين على الحركة؛ حتى يصيروا أيضاً قادرين على الفعل، وعلى تحمل مسؤولية أنفسهم تدريجياً؛ تمهيداً لاستقلالهم الطبيعي عنا.

إن تجاربنا المحدودة مع أطفالنا تدلنا على أنهم يرغبون - بالفعل - في تحمل المسؤولية، بمجرد حركتهم المحدودة في البيت من حولنا، وعلى أنهم يغضبون إذا لم نحملهم بعض المسؤوليات البسيطة، كإحضار كوب ماء، أو نحو ذلك من الأعمال التي نحرّمهم من القيام بها لأسباب عدة، فإذا بهم يسعدون إذا تحمّلوها، وتثور ثائرتهم إذا حرّمناهم منها.

وسوف تكون سعادة أطفالنا بالغة إذا حملناهم مسؤولية ترتيب أماكن حياتهم، كالمكان الذي ينامون فيه، والمكان الذي يجلسون فيه، واللُّعب التي يلعبون بها، على قدر ما يطيقون، دون أن ننتظر منهم الكمال فيما يصنعون - بطبيعة الحال - ولكن الصبر عليهم وتعليمهم،

هو بداية الطريق إلى هذا الكمال الذى ننشده .

وسوف نرى أن هذه المسئوليات البسيطة التى يتحملها أطفالنا فى البدايات، هى السبيل إلى تحمّلهم أعباء التعلم فى المدرسة عندما يلتحقون بها، فلا يُتعبوننا فى هذا التعليم، كما نرى ما يجرى فى هذا الزمان، حيث يذاكر الكثيرون منا عن أطفالهم، ويؤدون عنهم الواجبات، وتكون النتيجة هى الدروس الخصوصية وغيرها؛ مما أفقد التعليم فى بلادنا بهجته ومعناه، فصار المزيد من التعليم يعنى مزيداً من الاعتماد على الغير، ومزيداً من فقد الاستقلالية، وتعطيلاً بالتالى لنمو أبنائنا نمواً سليماً مستقيماً، يقدرّون به على حمل أعباء الحياة من بعدنا كما حملناها نحن، فضلاً عن قدرتهم على دفع عجلة الحياة إلى الأمام، لتسير الأمة من خلالهم مع السائرين .

وسوف نرى كذلك أن عبء أطفالنا سيكون عبئاً أخف، وكذلك سيكون عبء الحياة كلها، وستكون الحياة كلها أكثر إمتاعاً لنا ولأبنائنا جميعاً، إذ يكفيننا فقط أن نكون لهم قدوة طيبة فيما يفعلون، فهم يبدؤون بتقليدنا إذا أحببنا، وبذلك يتحولون - بفضل من الله - من عبء علينا إلى عون لنا .

وإذا كانت مشكلة الخدم اليوم مشكلة كبرى فى البيوت، لا تقل خطراً عن مشكلة الدروس الخصوصية، فإن مرجع هذه المشكلة بالدرجة الأولى إلى أننا أصبحنا نحمل عبء الحياة فى المنزل وخارجه، ونحرم

أبناءنا من أن يحملوا معنا هذا العبء، ربما عطفاً عليهم ورحمة بهم، وربما لأى اعتبار آخر، فعلينا أن ندرك خطأنا فى هذا الذى نفعله، باعتباره - كما سبق - حرماناً لهم من تحمل المسئولية، التى يستمتعون بتحملها، على عكس ما نتصور.

ولو أننا حملنا أبناءنا المسئولية معنا منذ طفولتهم المبكرة، وعلى قدر ما يطيقون كما سبق، فسوف نجدهم يستمتعون، ونجدهم يُريحوننا فى الوقت ذاته من مشكلة الخدم تلك، التى صارت مشكلة مؤرقة بالفعل، لا بسبب الأجر المرتفع الذى يرهق ميزانية الأسرة فحسب، ولكن بسبب ما ينجم عن وجود خادم أو خادمة فى البيت من تخريب متعدد الصور، عاشه بعضنا فعلاً، وسمع بعضنا الآخر عنه من أصدقائه وأقاربه، وقرأنا جميعاً كثيراً منه فى صفحات الحوادث فى الصحف.

ولابد أن نتوقع أن تكون هناك خسائر مادية من كسر أشياء، وإتلاف أشياء أخرى، إلا أن هذه الخسائر يمكننا التقليل منها قدر الإمكان بأن نبدأ بتمكينهم من الأشياء غير القابلة للكسر، لا من أجل أثمان هذه الأشياء وحسب، ولكن من أجل سلامة أطفالنا أيضاً.

ومهما تكن الخسائر فإنها لن تكون شيئاً يُذكر إذا ما قورنت بأجور الخدم التى صارت باهظة، إضافة إلى ما يسرقونه، وما يدمرونه عن عمد من تحف ومعدات غالية الثمن، عزيزة على أصحابها، لما تحمله من



ذكريات غالية بالنسبة إليهم فى أحيان كثيرة .

كما أن هذه الخسائر المادية مهما تبلغ، فإنها لا تساوى شيئاً إذا ما قورنت بالفوائد التى ستعود على أبنائنا فى العاجل والآجل جميعاً، سواء وهم معنا فى البيت، أو عندما ينتقلون إلى المدرسة، أو عندما يتخرجون فى المدرسة إلى ساحة الحياة على اتساعها .

وهكذا يجب ألا نشتغل بسبب ما سيحدثه أطفالنا من خسائر مادية، لأننا نحدث مثل هذه الخسائر أيضاً، وكذا الخدم يحدثونها، وإنما يجب أن نشتغل بسلامة أبنائنا، فلا نتمكنهم فى البدايات من أكواب أو قوارير زجاجية، أو من أشياء حادة، وإنما نتمكنهم من هذه الأشياء بالتدريج، وتحت رقابتنا، وتكون الفرصة سانحة فى كل الحالات لتعليمهم، وللاستفادة من أخطائهم، وسوف يكونون - بإذن الله - عند حسن ظننا، على عكس ما يتوقع الكثيرون منا .

إن الخوف المفرط عليهم مما يشل حركتهم ويعطل قدراتهم وإمكانياتهم، ومما يعطل نموهم الذى هياهم الله - سبحانه - له، مما يُعد فى حد ذاته كفراً بنعمة الله التى أنعمها عليهم وعلينا، فى الوقت الذى نجد فيه تمكينهم من الانطلاق والحركة تحت إشرافنا ورقابتنا أول الأمر، وتعريضهم لأن يخطئوا ويصيبوا، مما سيهيىء لنا ولهم فرص النقاش والحوار، ومما سيتيح الفرصة المناسبة لأن يكون لنا دور تعليمى فى حياتهم، يسعون هم إليه ولا نفرضه عليهم فرضاً، ويومئذ ستكون لحياتهم قيمة ومعنى، وسيسعون إلى التقدم بها إلى الأمام، مما سيكون

مصدر سعادة لنا .

وعندما يجدون حياتهم لها قيمة ومعنى على هذا النحو، فإنهم سيفكرون، وسيناقشون، وسيقرءون، وسيبحثون، وسوف يبتكرون ويبدعون، مما ينتقل معهم إلى المدرسة عندما يلتحقون بها، وإلى كل مدرسة ينتقلون إليها، ولن تكون هذه المدرسة في هذه الحالة كما هي اليوم سجنًا نقيد أطفالنا لنحملهم إليه، وإنما ستكون مجرد تجربة جديدة من التجارب العديدة التي عودناهم منذ نعومة أظفارهم على خوضها، وعلى قبول تحديها، وسوف يسعدون بهذا التحدي سعادتهم بتحدى كل تجربة سبقتها .

وسوف تتحول هذه المدرسة من قيد وسجن إلى مجال للحركة والإبداع، مما سيحل لنا كثيرًا من المشاكل التي نعاني منها مع أولادنا في المدرسة، فسوف نجدهم يعرفون كيف لا يخافون، وكيف يتكيفون، ثم كيف يقتحمون، وكيف يتفوقون في الدراسة وفي غير الدراسة من ألوان النشاط الذي تقدمه المدرسة، سواء ما يخدم المادة التعليمية من هذا النشاط، أو ما يخدم البيئة، أو ما يفتق المواهب الخاصة بهم .

إنهم سيذهبون إلى المدرسة ليكونوا عونًا لها في أداء رسالتها، لأنهم سيذهبون إليها محبين لها، ومحبين للعلم الذي تقدمه، ومحبين لمن يقدمون لهم هذا العلم، ولإدارة المدرسة التي تهنيئ لهم فرص

التعلم والحركة والنشاط، مما سيحول جو المدرسة إلى جو مختلف، يشذ فيه من يغش، لأنه لن يغش إلا نفسه، وتقل فيه الدروس الخصوصية؛ لأنها ستكون دليل عجز وعي لن يحبوا أن يظهروا عليه أمام أنفسهم، وأمام أقرانهم، وأمام مدرسيهم، وأمام ذويهم في المنزل.

ولأنهم ذاهبون إلى المدرسة محبين لها، فإننا سنرى أبناءنا متعاونين معها ومع إدارتها، محافظين على أثاثها، داعمين لها بكل ما يملكون، بما في ذلك الدعم المادي على قدر ما يستطيعون، ومتعاونين أيضاً مع بعضهم على حل مشكلات تعلمهم، لأنهم سيحبون أن يتعلموا بأنفسهم، مما سيجعل للمدرسين دوراً جديداً، سيضطرون إلى أن يعدوا له، ليكون لهم دورهم القيادي في هذا النظام الجديد واللازم.

ولأن أبناءنا سيذهبون إلى المدرسة محبين لها، وراغبين في التعلم فيها فسيكون للمكتبة المدرسية دور مختلف، هو الدور الأساسي فيها، وسيكون لأمين المكتبة فيها دور مختلف عن الدور الذي يقوم به الآن في نظم تعليمنا العربية، وستكون هناك ورشة ومعمل وملاعب، لتتخذ مواقعها محل الفصل التقليدي الجامد، الذي صار يضيق في مدارسنا بكل شيء، وسيكون للمعلم وضع جديد أكثر مرونة، وأكثر حركة، وأكثر إيجابية، وأكثر احتراماً بالتالي، وأكثر إمتاعاً له ولأبنائنا جميعاً.

وسيجد المعلم نفسه أباً، يقوم في المدرسة بنفس ما رأينا الأب يقوم به في البيت، في فصول الكتاب السابقة.

وإذا كنا قد بدأنا - كما سبق أن قلنا - شكر الله - سبحانه - على
نعمة الابن التي أنعم بها علينا بالعقيقة ابتداءً، فإننا لا بد أن نواصل
هذا الشكر كلما ظهرت على الابن نعمة من نعم الله، فنشكره عندما
يتحرك الابن، وعندما يغادر المهد، ونشكره عندما يتحرك لسانه
بالنطق، ونشكره عندما يحرك عقله ويفكر، ويكون شكر الله -
سبحانه - في كل حالة بتنمية هذه النعمة، حتى تصل إلى أقصى
طاقاتها، ونمكنه من أن يتحمل المسئولية، حتى يكبر فيحمل عنا
هموم الحياة التي حملناها عليه صغيراً، ولعل ذلك هو الترجمة الحرفية
لقول الله - سبحانه - لكل ابن - عن والديه - عندما يصير راشداً
قادراً على حمل الحياة والاضطلاع بتبعاتها وتحمل أعبائها:

﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي

صَغِيرًا﴾ [الإسراء : ٢٤].



الفصل التاسع طفلك إضافة إليك

الأصل في حياة كل الكائنات الحية أن الوليد إضافة إلى حياة الكائن الحى الذى تشكّل هذا الوليد من بعض عناصره، بل إنه فى بعض الحالات يحل محله فى الحياة، كما نراه يحدث فى حياة النحل.

ولا يشذ الإنسان عن هذه القاعدة، بل إن الإنسان يكون أكثر إحساساً بها من سائر المخلوقات والكائنات الحية، بوصفه مخلوقاً عاقلاً، يعرف معنى الحياة ومعنى الموت، ويعرف معنى الخلود ويرغب فيه، مما كان منزلقه إلى العصيان، على النحو الذى يوضحه لنا القرآن الكريم فى قصة خلقه الأولى فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ [طه: ١١٦ - ١٢٠].

إن الإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بأنه حامل ثقافة ومعبر عنها فى الوقت ذاته، مما يجعله أكثر إحساساً بهذا الأمر من غيره من

المخلوقات، لضمان استمرار ثقافته من بعده، وإلا اعتُبر في عُرفه (أبتر) أى مقطوعاً، على نحو ما نقرأ في أسباب نزول سورة الكوثر، فقد كان أبو لهب يعتبر رسول الله ﷺ مقطوعاً، أى ليس له ذرية تحمل رسالته من بعده، فنزل القرآن الكريم بالرد على أبى لهب فى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ يَكْوُثَرَّ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ لَلَّهِ أَنْحَرُ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) ﴾ شَانِئَكَ : أى مبغضك وكارهك ؛ لأن الرسول ﷺ موصول العقبي بكل المسلمين من بعده، الذين حملوا رسالته، وبلغوها عبر الزمان والمكان .

وفى ضوء ذلك نفهم دعاء زكريا - عليه السلام - واستجابة الله - سبحانه - لدعائه فى قول الله سبحانه :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٩ ، ٩٠] .

وإذا كانت هذه هى فطرة الله التى فطر الناس عليها، فإن النظر إلى القضية بمنظور آخر مما يفسد الفطرة ويفسد الحياة جميعاً، كما نرى فى مجتمعات الرفاهية المادية فى الغرب، - رغم هذه الرفاهية المادية - حيث لم تستطع القطط والكلاب التى حلّت محل الأطفال فى الحياة أن تسد الفراغ فى حياة الغربيين، ولا أن تجعل لحياتهم معنى، مما صار يهدد حضارة الغرب وتراثه فى نظر كثير من فلاسفته ومفكره، ممن

ينتظرون أن يأتى الخلاص من الشرق، برؤاه المسايرة للفترة والمتسقة معها.

ومعنى أن الطفل إضافة إلى الحياة؛ أنه لا يمكن أن يكون مجرد قابل بليد للتراث الثقافى، فهو يبدو أمامنا قادراً منذ بدايات إدراكه على تشربه وتمثله، حتى يكون تعبيراً حياً عنه، وإنما هو قادر على تجديده وتطويره، بل وراغب فى ذلك أيضاً.

إن طفلك الذى يبدو كما لو كان يتأهب لأن يكون صورة منك وتجديداً لك، بما يقوم به من محاكاة لك وتقليد فى كل شىء؛ مما يكون مصدر إزعاج لك أحياناً، إنما هو يتأهب فى الحقيقة ليستقل عنك، وليكون نسيج وحده، وبالتالى فهو يتأهب لأن يكون تجديداً لك فى الحقيقة وإضافة إليك.

إنه يتخذ منك أرضاً ينطلق منها إلى حيث يحب، وحيث تحب له، فالتفت إليه وساعده فى الوصول إلى هذا الذى تحب ويحب، وإلا وصل إلى عكس هذا الذى تحب له وتتمناه.

إن كل الآباء يحبون أن يكون أبنائهم أفضل منهم، وكثير من الآباء الذين تعثروا فى خطوات حياتهم لأسباب بعينها، يجدون العزاء - كل العزاء - عما كان لهم، فيما يبذلونه من جهد، ليتمكنوا أولادهم من النجاح على طريق الحلم الذى تعثروا على طريق تحقيقه.

وليكون ابنك أفضل منك، كما تحب له أن يكون، ما عليك إلا أن

تبدأ معه من حيث هو، فتحبو معه وهو يحبو، وتحلم معه وهو يحلم، وتلعب معه وهو يلعب؛ لتزداد منه اقتراباً، حتى يحبك ويتعلق بك، ويحاول أن يكون صورة منك، لتتكون لديه الأرضية التي يستند إليها، لينطلق منها إلى حيث تتمنى له.

ولا تنس أن اللعب بالنسبة إلى طفلك الصغير ليس لهواً ولا عبثاً، بل هو نشاط وحركة، يتم توجيه الطفل تربوياً من خلاله، ومن ثمَّ كان طريقاً من طرق التربية، لا يقل قيمة عما يقدم للطفل من علوم ومعارف عندما يُطبق عقله، وبالقدر الذي يطيقه منها.

بل إنَّ هذا اللعب في مراحل نمو الإنسان المختلفة يُعتبر طريقاً من طرق النمو المختلفة، التي يجب أن يظل الإنسان حريصاً عليها، ومن ثمَّ فإنَّ هذا اللعب يكون فرصة لك - أيضاً - لتعيش حياتك كما يجب أن تعيشها، وتجدد هذه الحياة أيضاً، بعد أن شغلنا هموم الحياة عن أنفسنا، فضاعت في زحامها مثل هذه الأمور البسيطة والواجبة.

واللعب المتعارف عليه لون من ألوان النشاط التربوي الهادف، يمكن أن يكون محور الحياة التربوية في الطفولة المبكرة، بل إنَّ ثمة من يرى أن اللعب يمكن أن يكون محور العمل التربوي كله، بعد تحويل هذا اللعب قليلاً، ليكون نشاطاً يتم التعليم عن طريقه، حيث نسمع في حياتنا العربية منذ منتصف هذا القرن العشرين تقريباً عن التربية من خلال النشاط.

ومن خلال مشاركتك طفلك في لعبه في البدايات، ونشاطه عندما يكبر، ستزداد فهمًا له، ويُمكنك هذا الفهم من ضبط حركاته، وتنمية مهاراته، مما لا بد أن يفيدَه فيما بعد في الإمساك بالقلم وهو يكتب مثلاً، أو وهو يسير في الطريق إلى المدرسة عندما يلتحق بها، أو مما لا بد أن يفيدَه في ضبط سلوكه عمومًا بعد ذلك، في المدرسة وبعدها.

وعلى طريق اللعب أو النشاط، ومشاركتك له فيه، يمكن أن تعلمه كيف يخطط، وكيف يفكر، وأن تقوده إلى القراءة عن اللعب المختلفة، وستجد نفسك - أيضاً - تستعيد مهارات وفنيات وآليات كنت تحرص عليها، ولكنها أخذت تضيع منك في زحام الحياة.

وهكذا يكون طفلك بكل المقاييس إضافة إليك، لو أنك اعتبرته نعمة من الله - سبحانه - أنعم بها عليك، وأردت شكره عليها، بأن تُحسن استقبالها، وتُحسن تقبلها، وتُحسن رعايتها، ولم تكن من أولئك الذين ينظرون إليه بمنظار آخر وفد علينا من خارج حدودنا، ومن خارج ثقافتنا، ومن خارج ديننا جميعاً، يشقى به القوم هناك ولا يسعدون، رغم أنهم يحاولون تصديره إلينا بشتى السبل.



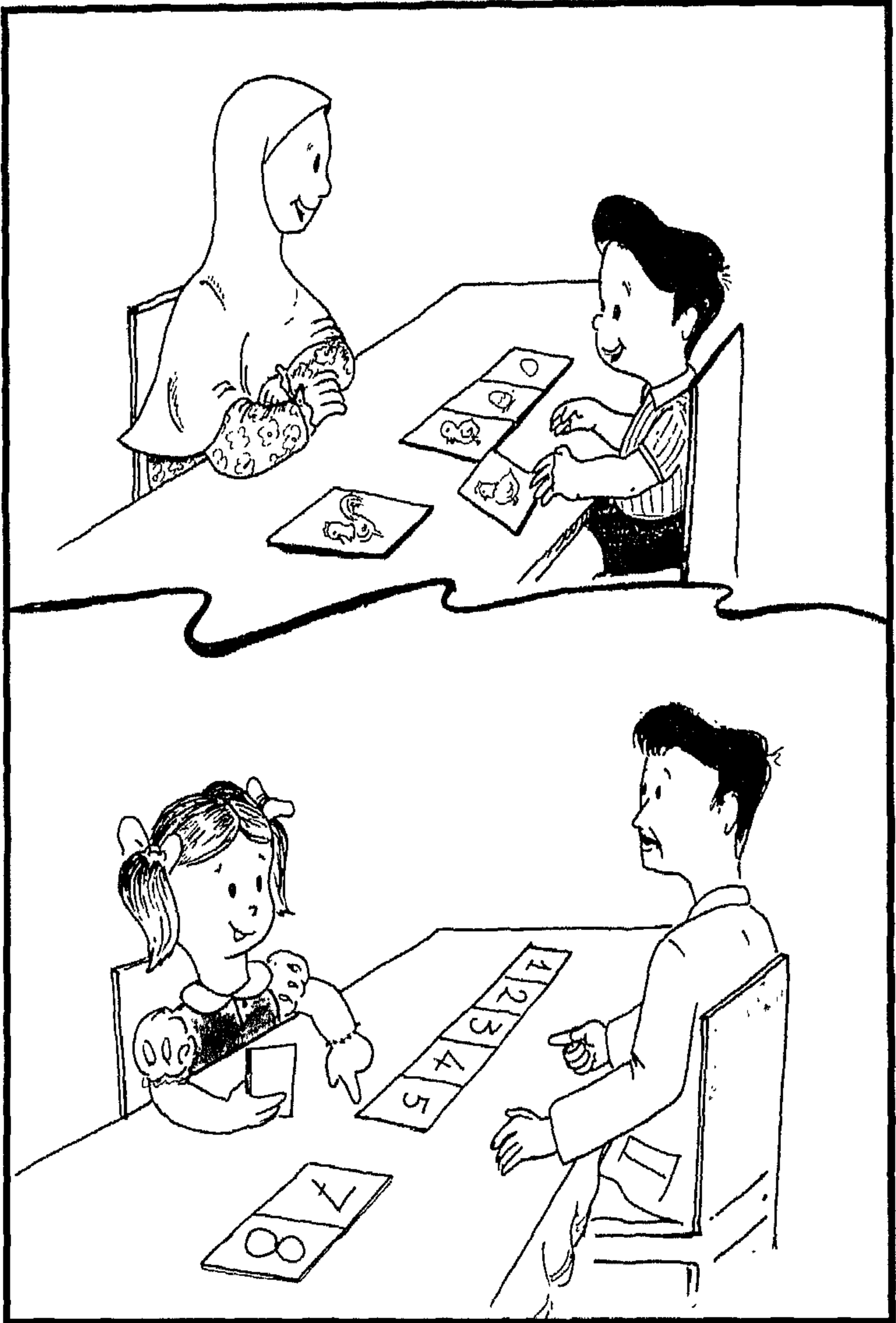
الفصل التاسع

طافلك إهنافة إلى الأمة

إذا كان رَحِم الأم يعتبر عالم الطفل الوحيد فى مرحلة الحمل، فإن هذا العالم يتسع بعد الولادة، ليكون صدر أمه ومهدده، ثم يُضم إليهما أبوه وإخوته فى داخل البيت، ثم يمتد تدريجيا خارجه حتى يصل إلى المدرسة ويخرج إلى المجتمع، ليكون فى كل مرحلة يربها إضافة إلى المجتمع الذى ينتقل إليه، حتى يكبر فيكون ملكاً للأمة وإضافة إليها، إن هى أحسنت تهيئة سُبُل نموه نمواً سليماً مستقيماً فى مراحلهِ المختلفة تلك، وإلا كان عبئاً عليها فى النهاية.

وكما هيا الله - سبحانه - للطفل فى رَحِم أمه الجو المناسب والبيئة الصالحة والتغذية المناسبة، فإنه - سبحانه - يهيئ لبن الأم ليتدرج مع الطفل بعد مولده، ليكون الأكثر مناسبة لمرحلة نمو الطفل، ويأمر الله المسئولين عن رعايته بتوفير الجو المناسب لتنشئته، حتى فى أسوأ الحالات التى يربها الأبوان، على نحو ما يأمر به الله سبحانه - الرجال فى مثل قول الله عز وجل :

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِى الضَّرْعِ فَلَهُ



أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٦﴾

[الطلاق : ٦، ٧].

والطفل فى نهاية المطاف إضافة إلى الأمة، ومن ثم كانت عناية الدولة من قديم بالطفولة، حتى لقد اعتبرت مجتمعات قديمة مختلفة الأطفال ملكاً لها من ساعة مولدهم، واعتبرت الأسر التى ينتمى إليها هؤلاء الأطفال مجرد أمينة عليها، تقدم لها أقصى ما تستطيع من عون ومساعدة، لتمكنها من القيام بما أوتيت عليه، وتحاسبها على ذلك.

وعلى أكتاف أولئك الأطفال الذين اعتبرتهم هذه المجتمعات القديمة هذا الاعتبار، واهتمت بهم كل هذا الاهتمام؛ قامت الحضارات القديمة، وتوسعت الإمبراطوريات، عندما صار هؤلاء الأطفال رجالاً قادرين على حمل المسئولية، على النحو الذى رباهم المجتمع عليه، لتحقيق أهداف التوسع التى خطط لها النظام المسيطر على هذا المجتمع.

وإذا كانت الأسرة هى الخلية الأولى من خلايا المجتمع؛ فإن معنى ذلك أن منظور الأبوين إلى الأطفال لا يأتى من فراغ، وإنما هو يتسرب إليهما من خلال النظام الاجتماعى الذى يعيشان فى إطاره، والذى تعمل فى إطاره أيضاً المدرسة وغيرها من وسائل التعليم والتثقيف والتدريب، التى لها من التأثير فى الحياة اليوم مثل ما للمدرسة وأكثر،

والتي تساهم مع النظام التعليمي في تشكيل العقل الجمعي للأمة، وفي تشكيل منظوره إلى مختلف المسائل، ومنها: مسألة الطفولة وما يتصل بها من رعاية.

ومعنى ذلك أن هناك تناغماً يجب أن يكون بين ما تراه لطفلك وبين ما يراه المجتمع لأبنائه، وإلا كنت كمن يعدده لمجتمع آخر، وهو ما لا يمكن أن نفكر فيه مطلقاً بطبيعة الحال؛ لأن ذلك مما يقوده إلى سوء التكيف في المستقبل مع مجتمعه، الذي تعدده أساساً للعيش فيه، مما يعود عليه وعلى المجتمع بالضرر.

ويُفيدك في الوقوف على ما يراه المجتمع ويريده من أبنائه الصغار، أن تنتقل به ومعه بين مرافق المجتمع المختلفة، فلا تتركه يذهب وحده إليها، سواء في ذلك جماعات الرفاق، ودور العبادة، ومراكز الأطفال والشباب والمدرسة، إضافة إلى وسائل الإعلام والتثقيف؛ لتساعده على تنمية شخصيته من خلالها، ومن خلال ما يجب أن يكون بينك وبينه من حوار مستمر حول ما تقدمه. إنك بذلك تنمي شخصيته في الاتجاه الصحيح، حيث تساعده على أن يكون فاهماً للحياة التي سيتصل بها وسيتفاعل معها، وبذلك تساعده على أن يكون عنصراً فاعلاً في المجتمع، قادراً على التأثير فيه، وبذلك يكون بالفعل إضافة إليه.

لقد كان ابنك في البيت تحت تأثيرك وتوجيهك، فأصبح بعد خروجه من البيت تحت تأثيرات شتى، لن يستطيع بإمكاناته المحدودة أن يواجهها وحده، مما يتطلب منك مزيداً من الجهد، ليحس بأنه لا يقابل

ما يقابله وحده .

وسوف تكون أنفاسك معه خارج البيت عوناً له على أن يجتاز ما يجتاز من تجارب، وعلى أن تكون هذه التجارب مما يضيف إليه، دون أن يثقل كاهله .

وسوف تكون أنفاسك معه في المدرسة خاصة دعماً له، على ألا يقودك اهتمامك بابنك في المدرسة إلى التدخل في شئونها، تدخلا يزعج المدرسة والمدرسين وابنك جميعاً، مما لا بد أن يكون له انعكاسات سلبية على ابنك، لعل من أبرزها أنك بذلك تعوق حركته، وتمنعه من أن ينمو كما ينمو أقرانه، مما يُحوِّلُك بالنسبة إليه إلى أن تكون عبئاً عليه، أكثر من أن تكون عوناً له .

إنك في المدرسة تراقبه من بُعد، وتناقشه، وتستغل حبه لك لتقيم مصالحة بينه وبين المدرسة والمدرسين، وسوف تلجأ إلى المدرسين كثيراً لتعرف عنه وعنهم ما سوف يجعلهم يفرحون به ويهتمون، على أن يكون لجوئك هذا هادفاً إلى التعلم منهم ما أمكن، وطلب نصيحهم، فهم يعرفون عن الأطفال أكثر مما تعرف، وسيفيدك أن تسمع منهم إذا استطعت أن تفتح صدورهم لك، بينما ستخسر كثيراً إذا أنت تدخلت في أعمالهم تدخلا تتحول معه إلى مصدر إزعاج لهم .

ولا تنس دائماً وأنت تتعامل مع المدرسين أنهم بشر، وأنت إذا كان لك عند بعضهم ابن واحد، فإن لدى كل منهم عشرات مثل ابنك،

فكن لهم عوناً لتحصل على عونهم، ولا تكن عليهم عبئاً فيملؤوك ويضيقوا بك، مثلما يضيق بك ابنك ذاته، الذى يهمله أن يحس بأنه قادر على الاعتماد على نفسه مثل أقرانه.

وسوف تلاحظ - من اتصالك بالمدرسة والمدرسين - أن المدرسة معذورة إذا قصّرت، وأن المدرسين معذورون كذلك، لأنهم بشر مثلك، ولو أنك دخلت عليهم من هذا الباب الواسع، وعرضت عليهم تقديم ما تقدر على تقديمه من عون لهم وللمدرسة - حسب إمكاناتك النفسية والعقلية والمادية والوقتية جميعاً - لكان خيراً لك ولطفلك.

إنهم سوف يقدرّون لك احترامك لهم وتقدير متاعبهم مع ابنك ومع أقرانه، وسوف ينعكس احترامك لهم على أدائهم، وعلى تعاملهم مع ابنك وزملائه، مما يحوّلهم جميعاً إلى خلايا نشطة، تضيف إلى المجتمع فى المستقبل.

وإذا كانت النسبة الغالبة من الآباء والأمهات تهتم بمسائل التعليم والتحصيل والدرجات، فليكن اهتمامك أنت بالأمور التى تُعتبر فى نظر المدرسين غير فنية، مما لا يوقعك معهم فى حرج، فى الوقت الذى تعتبر هذه الأمور بالنسبة إلى ابنك وإلى زملائه جميعاً أكثر قيمة وأهمية من أمور التعليم والتحصيل؛ لأنها تتصل مباشرة بالجو الذى يتم فيه التعليم والتحصيل، خاصة النشاط، سواء فى ذلك النشاط

الذى يتم فى داخل الصف الدراسى، أو الذى يتم فى إطار المدرسة، أو الذى يتم خارجها، وسواء فى ذلك النشاط العلمى، أو النشاط الرياضى، أو النشاط الاجتماعى، أو النشاط المسرحى، أو النشاط الترفيهى؛ مما ينمى قدرات ابنك وإمكاناته فى مجالات بعينها، مما قد يقوده إلى التفوق والتميز، ومما يقوده إلى الاهتمام بشئون التحصيل أيضاً، فيكون فى كل الحالات إضافة جيدة للأمة، وإضافة لك أيضاً.

ومثل هذا النشاط مما يستدعى الاهتمام فى المدرسة بأمور بعينها لا نلتفت إليه كثيراً فى بلادنا فى هذا الزمان، وفى مقدمة ذلك المكتبة المدرسية، التى تعتبر فى نظر التعليم المعاصر جزءاً لا يتجزأ من العملية التعليمية، بوصفها تضم كتباً ودوريات ومواد علمية، تتصل من قريب أو من بعيد بما يقدم للأطفال والمتعلمين من علوم ومعارف ومهارات.

والمكتبة المدرسية تحتاج إلى مكان جيد يتسع للكتب، ويتسع للقراءة ويشجع عليها، مثلما تحتاج إلى أجهزة وأدوات ومعدات تحقق الاستفادة مما يُقرأ، ومثلما تحتاج إلى أمناء مكاتب ومساعدين لهم مدربين على تقديم الخدمات المكتبية، ومن ثم فإنها تحتاج إلى وقفة منك مع الإدارة المدرسية، تكون فيها قادراً لا على تقديم النقد وحده، ولكن على تقديم العون أيضاً، بالتعاون مع أولياء الأمور الآخرين لصالح ابنك وأبنائهم جميعاً.

وملعب المدرسة الذى أصبحنا نغتاله فى مدارسنا اليوم، أمر لا يقل خطراً عن المكتبة المدرسية، مع أن اللعب عميق الجذور فى ثقافتنا التربوية، ومع أنه لا يكاد كتاب من كتب التربية الإسلامية يخلو من التشديد على أهميته، حتى إن الإمام الغزالي فى كتابه «إحياء علوم الدين» يرى أن منع الصبى من اللعب وإرهاقه بالتعليم، يميت قلبه، ويبطل ذكائه، وينغص عليه العيش، حتى يطلب الخلاص منه رأساً.

وما يُقال عن المكتبة وعن الملعب، يمكن أن يُقال عن سائر ألوان النشاط الذى تقدمه المدرسة، والذى يمكن أن يكون مُدخلا لك إليها، ولا يخرجك مع المدرسين ومع إدارة المدرسة، ويسر لك التعامل الذكى معها، الذى تكون به قادراً معها على تقديم العون لابنك ولأقرانه، بحيث يكونون فى النهاية - جميعاً - إضافة إلى الأمة تسعد بها.



الفصل العاشر

طفلك إضافة إلى الإنسانية

إذا سلكت سبيل الفطرة في تربية طفلك وتنشئته على النحو الذي وضحناه في فصول الكتاب السابقة؛ فإنه لن يشب إضافة إليك وإضافة إلى الأمة فقط، وإنما سيشب إضافة إلى الإنسانية أيضاً، على النحو الذي يمكن أن نفهمه من قول النبي ﷺ فيما أخرجه الترمذي عن أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه - :

« ما نحل والدٌ ولداً من نحل أفضل من أدب حسن » .

ولا تنس أن الذين غيروا وجه الحياة على الأرض من المفكرين والمخترعين والعباقرة لم يولدوا كذلك، وإنما هم وُلدوا كما وُلد ابنك، ومروا بالمراحل نفسها التي يمر بها من التطور والنمو، وأنهم قد لا يكونون أكثر منه ذكاء، ولكنهم وجدوا راعين لهم، يقودونهم بسلام إلى ما وصلوا إليه بإذن الله، ومن ثم كانوا إضافة إلى الإنسانية كلها، بما خلفوه وراءهم من بصمة على حياة الناس جميعاً، ومن أجل ذلك كان خلودهم بيننا بأسمائهم وبصماتهم على الحياة جميعاً، وهو ما نبهنا إلى شيء قريب منه رسولُ الله ﷺ، فيما أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - :

« إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له » .

لقد بدأ هؤلاء العباقرة والمخترعون والمفكرون طفولتهم باللعب كما يلعب طفلك، وربما كان توجيه بعضهم من خلال اللعب، وبعضهم من خلال التأمل، وبعضهم من خلال ما لوحظ عليه من انطواء، وبعضهم الرابع من خلال ما لوحظ عليه من انبساط وحركة، وربما كان بعضهم متفوقاً في الدراسة تفوقاً لفت أنظار أساتذته وذويه، وربما كان بعضهم الآخر عادياً لم يتصور أحد ممن اتصلوا به أن يكون في الحياة شيئاً مذكوراً، ولكن المهم في كل حالة من الحالات التي نبغت وتفوقت وبرزت، أنها وجدت من يجد فيها شيئاً يستحق أن يلتفت إليه، فعمل على تنميته، على النحو الذي ندعوك إلى أن تفعله مع ابنك طوال الكتاب .

وقد يكون هذا الذي التفت إلى ما يستحق الالتفات إليه في الطفل الذي صار مخترعاً أو مفكراً أو لامعاً على أي نحو من الأنحاء، والد الطفل أو والدته أو قريب من أقاربه، أو قريبة، أو مدرس من المدرسين، أو أي إنسان ساقه الله إليه، على نحو من الأنحاء، ليكون سبباً من أسباب نبوغه، وبالتالي من أسباب استفادة الإنسانية منه، على النحو الذي استفادت به الإنسانية منه، فحاول أن يأتي الخير دائماً على يدك حيثما كنت .

لقد تعودنا نحن الكبار عموماً، أن نقلل من شأن مَنْ نتولى أمورهم من الأطفال والشباب، سواء كنا آباء أو مدرسين أو عاملين في مراكز للشباب أو نوادٍ رياضية، أو غير ذلك من الأماكن التي يوجد فيها الأطفال والشباب، مع أن واجبنا الأساسي - حيثما كنا - هو أن نكتشف مكان القوة في هؤلاء الأطفال والشباب لننميها، وأن نكتشف نقاط الضعف فيهم لنعالجها.

وقد يكون تقليلنا من شأنهم مرجعه أننا لا نشق فيهم وفي قدراتهم، فنقوم نحن بالعمل عنهم، ناسين أننا عندما نقوم بالعمل عن أبنائنا إنما نعترف بعجزنا نحن الكبار عن قيادتهم إلى ما كنا نحب أن نوصلهم إليه، أكثر مما هو اعتراف بعجز قدراتهم وإمكاناتهم.

إنني شخصياً لا أتصور إنساناً فاشلاً، وإنما أتصور إنساناً فشل البيت، وفشلت المدرسة، وفشل المجتمع كله في استغلال طاقاته وإمكاناته، بدليل أن كثيراً ممن يفشلون في أن يصلوا إلى ما نريدهم أن يصلوا إليه في التعليم، أو في العمل، أو في ألوان النشاط المختلفة، ينجحون في الوصول إلى ما لا نريده نحن، ولكنهم يريدونه هم، ليثبتوا لنا قدرتهم على الفعل، وإمكاناتهم التي أهدرناها.

وقد يكون عدم تحميلنا إياهم المسؤولية مرجعه إشفاقنا عليهم، وتدليلنا لهم، وهو إشفاق يقتل فيهم روح المبادرة وروح المغامرة.

إننا يجب أن ندفعهم إلى العمل، وندعهم يخطئون، حتى يتعلموا

من أخطائهم، وسوف يساعدنا قُربنا منهم فى البيت، وفى المدرسة، وفى النادى، من تقليل هذه الأخطاء، إذا لم يؤد قُربنا منهم إلى شل إمكانياتهم، وهو قُرب لا بد أن يكون شديداً فى البدايات، وأن يقل كلما مرت بالصغير السنون، حتى ينمو نموه الخاص به، الذى يتناسب مع قدراته وإمكانياته، ومع ما خُلق ميسراً له، وذكاؤنا حيثما كنا يتبدى فى مدى قدرتنا على الوقوف على هذا الذى يُسرّ له الصغير، حتى نقوده بيسر وسهولة إليه.

ولأن طفلك إضافة إلى الإنسانية كلها، فقد بدأت المؤسسات الدولية تهتم بالطفولة، وتهتم بالتربية، وتهتم برعاية الموهوبين والمتفوقين، وتقدم الدعم والتأييد للمجتمعات التى ترغب فى النهوض بأطفالها، وتنظم تعليم أبنائها، بعد أن صارت الموهبة تتحول إلى تطور واختراع، لا يستفيد به المخترع وحده، ولا الأمة التى ينتمى إليها وحدها، وإنما تستفيد به الإنسانية جمعاء، إذا كان الاختراع اختراعاً يهدف إلى تحسين الحياة، وإلى تخفيف آلام البشرية، مثلما صار الفقر والجهل والتخلف وباءٌ يصيب البشرية كلها بآلامه وويلاته، بما يؤدى إليه من تخريب للبيئة المحلية والبيئة العالمية جميعاً.

وإذا أتيح لك أن تقوم بالدور المنوط بك فى الوقوف على ما خُلق ابنك مُيسراً له، وساعدته على أن يكون نافعاً فى الحياة، صالحاً لها، قادراً على أن يكون مبتكراً أو مخترعاً، فستكون قد خدمت الإنسانية أيضاً، ويكون لك نصيب كبير من الأجر والثواب من الله - سبحانه -

، إن كنتَ قمتَ بهذا الدور إرضاءً لله سبحانه، وشكراً له، على النحو الذى تم توضيحه فى فصول الكتاب السابقة.

ولو أنك أتمت لابنك فرصة القراءة، وهى مُتاحة فى هذا الزمان أكثر مما كانت فى أى زمان مضى، وفرصة الحصول على أدوات ومعدات، ليس ضرورياً أن تكون مكلفة بحيث ترهقك مالياً، ووضعتها له فى مكان سميته معملاً، ليس ضرورياً أن يكون كبيراً ولا فخماً، ولا أن يؤثر تأثيراً يُذكر على مساحة البيت الذى تقيم معه فيه، لو أنك أتيح لك ذلك كله أو شىء قريب منه؛ فربما تكون بذلك تفتح الطريق لابنك لأن يكون بالفعل إضافة إلى الإنسانية حقاً، فإن معظم المخترعين العظام الذين أضافوا إلى العلم، وتمكنوا من تغيير الحياة على الأرض، لم تُتح لهم من ذلك كله إلا أقل القليل، كما نستدل من تاريخ حياة كل منهم.

وإذا لم يكن لديك شىء توفره له يساعده على التفوق، فيكفيك أن تباعد بشىء يفيد بينه وبين ما لا تحب له؛ فيكون خيراً تؤجر عليه، تضيف به إلى البشرية - أيضاً - فى عصر صارت الجريمة والعنف سمة الحياة فيه، وصارت الجريمة المنظمة عالمية التنظيم، عالمية الحركة والفعل والتأثير، وصارت بالتالى عالمية الأداء، بشكل صارت معه منافسة للشركات العابرة للقارات، فى اعتمادها على العلم والتكنولوجيا، وفى قدرتها على اكتشاف المواهب واجتذابها والدفع السخى لها، حتى صارت ملجأ العبقرية العالمية، التى فشلت

المجتمعات فى استغلال إمكاناتها لصالحها .

وفى ضوء كل هذه التغيرات ربما استطعنا فهم خطاب السماء إلى الناس كافة، بعد خطابه إلى المؤمنين فى سورة الحجرات فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ١١ ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ١٢ ﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿

[الحجرات : ١١ - ١٣] .

إن تجنّب أبنائنا الشر هو خير فى حد ذاته، وتمكينهم من أسباب الخير يكون خيراً مضاعفاً، وشكر الله - سبحانه - ابتداء فى هذا التمكين هو باب رحمة الله - سبحانه - بالمؤمنين من عباده، الذين أسأل الله - سبحانه - أن نكون منهم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٣	تقديم
٥	الفصل الأول: نعم لا تُعد ولا تُحصى
١٤	الفصل الثاني: الأبناء نعمة
٢٦	الفصل الثالث: صيانة النعمة
٣٥	الفصل الرابع: استمتع بطفلك
٤٤	الفصل الخامس: تعلّم من طفلك ومعه
٥٢	الفصل السادس: شاور طفلك
٦٠	الفصل السابع: حمّل طفلك المسؤولية
٧١	الفصل الثامن: طفلك إضافة إليك
٧٨	الفصل التاسع: طفلك إضافة إلى الأمة
٨٧	الفصل العاشر: طفلك إضافة إلى الإنسانية

أبنائنا ... سلسلة سفير التربوية

سلسلة تهدف إلى تعريف الآباء والمربين بالمشاكل التي تواجه الأطفال ، وكيفية التغلب عليها من الناحية العلمية والتطبيقية ، وذلك بطرح القضايا والموضوعات التي تهم كل مرب ومناقشتها بموضوعية وأمانة في ضوء المنهج الإسلامي دون افتعال .

كما تقوم السلسلة بعرض نماذج لمشكلات حقيقية من واقع الحياة ، ومعالجتها في إطار ما ورد في النظريات التربوية والنفسية والاجتماعية بما يعين المربي المسلم على تنشئة أجيال مسلمة .

